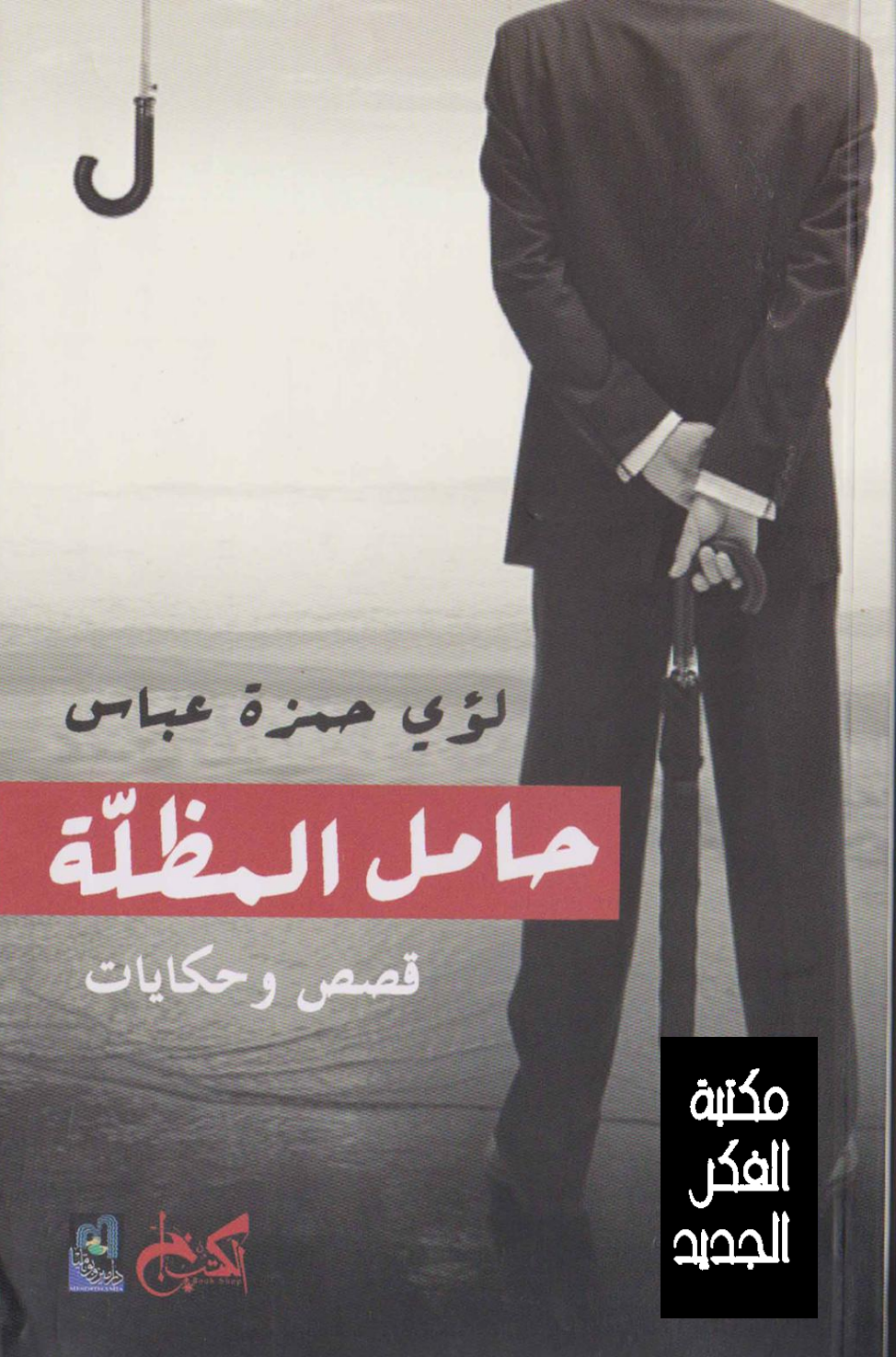

لؤي حمزة عباس

# حامل المظلّة

قصص وحكايات

مكتبة الفكر الجديد

لؤي حمزة عباس

# حامل المظلّة

قصص وحكايات

# حامل المظلّة

قصص وحكايات

لؤي حمزة عباس

# Umbrella Holder

Stories and Tales

**Luay Hamza Abbas**

•••••

الطبعة الأولى 2015

إصدار دار ميزوبوتاميا للنشر والتوزيع

العراق . بغداد شارع المتنبي . العناوين الإلكترونية: mazin774@gmail.com

hamawendi@yahoo.com . mazin24@ymail.com . تلفون: 07905139941

والكتب خان للنشر والتوزيع

13 شارع 254 . دجلة . المعادي . القاهرة . مصر

تليفون: 20225196569+ 201000580292+

Info@kotobkhan.com www.kotobkhan.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للناشرين والمؤلف

لؤي حمزة عباس، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988،

ولا يجوز نسخ أو طبع أو اختزاء أو إعادة نشر أية

معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بأذن خطي من الطرفين.

عدد النسخ: 1000 نسخة القطع: 15x21

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 2188 لسنة 2014

First Published by Dar Mesopotamia

for Publishing and Distribution- Baghdad- Iraq

And Kotobkhan for Publishing and Distribution- Cairo- Egypt

Reserved copyright © September 2014

The right of the

Author of this work has been asserted in accordance

with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

ISBN Number: 2188\- 2014

فوتوغراف الغلاف: Benedict Brain

تنفيذ الغلاف: صدام الجميلي

مكتبة
الفكر
الجديد

ها أنا مخترق من صدري مرّة أخرى
أشقّ بظهري الأمواج
مخلّفاً نهيراً صغيراً من الدماء.

**أسامة الدناصوري**

## مقدّمة:

# النسر والحكاية

إنها واحدة من مهمات القصة: أن تعيد حكاية العالم على نحو يليق بأحلامنا.
يكتب ذلك مواصلاً التفكير برجل عاري الصدر، شعراتٌ قليلةٌ شائبةٌ تلمع بين ثدييه المتهدلتين تحت شمس منتصف النهار، إنه يواصل عمله بدأبٍ صامت كما لو كان يُعيد المجدَ لفكرة عابرة، بملقط رفيع رمادي المَعدن يلقط كلَّ نهار من لحم صدره، أسفل ثدييه، شظيةً واحدةً، يتأملها مليّاً حتى يخلّف لونها المعتم وحافاتها الدقيقة المحزّزة في نفسه شعوراً غريباً، معتماً هو الآخر، ثم يُسقطها داخل زجاجة مع شظايا كثيرة، يُسعده أن يسمعها تسقط ويُبهجه رنينُها، يمنحها مع نفسه رقماً، أيَّ رقم، فقد نسي العدَّ منذ وقت ليس بالقصير، ثم يترك الزجاجة على حافة الشبّاك بعد أن يُحكم غطاءها ويعود لشؤونه مواصلاً كتابة القصص مثل أيِّ رجلٍ لم تنبت في صدره شجرة تورق شظية كلَّ يوم.

ـ ما أصعب أن نحيا بهذه الطريقة: أنصاف حقائق، تنبت الشظايا أسفل أثدائنا ويلوّح لنا الموت في كلّ حين.
حدّث الرجل نفسه وهو يواصل حلاقة ذقنه، منشغلاً بثلاثة أفعال مضارعة: يحلق، وينظر إلى وجهه، ويتحدّث بلا صوت.
في المحاضرة، صباح أمس، وهو يتحدّث عن تميم بن مقبل، لم يكن متأكداً إن كان يتحدّث عن أمنية عمرها ألف عام وعام أو عن نفسه التي تموت، في كل وقت، وتحيا.
خارج المنزل، عند هذا الوقت من المساء، كان الصوت يتواصل، يجرح روحه بلوعته المعدنية، فتنازعه رغبة مؤجّلة يغيّبها الصوت كما لو كان يردم حفرة عميقة مظلمة. كم كان بوده لو يتحدّث عن الحقيقة بلياقة ملاكم فتي، حقيقة تشبه الحكاية، تنبت حبة رمل في صحرائها الواسعة، في الحبة يرى حكاءً عظيماً يواصل عملاً بسيطاً، إنه يحكي كما لو كان يطارد شبحاً في مرآة، لم يكن من الصعب على حكاء مثله يعيش في حبة رمل أن يتحوّل إلى طائر عندما ينام، يسمع همس أرواح الناس المخبوءة في الأصداف، ويرى ثيراناً تتقافز على مساحات فسيحة معشبة، وأيائل تتخاطف في أحلام الصيادين، إنه يتسلل إلى أحلامهم كما يتسلل إلى الأصداف، بمقدور طيور الحكاية فعل ذلك، كي يداعبهم قليلاً قبل الصحو. في حكاياته يجلس على كرسي بلا ظهر، هازاً قدميه جرياً على عادة قديمة، ومن ورائه تواصل رائحة روث هبوبها، في سماء الحكاية تُشرق الشمسُ أيضاً، وتتحرّك عقارب الساعة حركتها كلّ يوم، لكنها تُشير لوقتٍ آخر يُحيط بالأشياء مثل هواء مغبر ويتسلل إلى أعماقها. في حكايته

## حامل المظلّة

يرى الحكّاءُ رجلاً يتهاوى من أعلى مخازن الخشب وقد زلّت قدمه على سقف معدني مضلّع شديد الانحدار، لن يسقط على كومة أحجار مرميّة على الجانب، كما هو متوقع، فتكون تلك السقطة خاتمة مريعة لحياته، سيهوّم طويلاً مثل نسر فتي يرى كثيراً من الحكائين يحلّقون في الفضاء الفسيح، من عام إلى عام تأخذ الحكايةُ النسرَ فيمرّ على أرض جديدة. الحكاء سيكوّن هناكَ، على كلّ ارض، يواصل حكاية الرجل الذي هوّم من أعلى مخازن الخشب، عند نقطة محدّدة يتوقّف قليلاً كي يسمع خفق جناحيه ويلتقط صرخته. في ساعات الوحدة التي ينقطع فيها كل صوت، ينادي الحكّاءُ النسرَ لكي يعيد حكاية أحلامه الأخيرة ـ للنسور أحلامها ـ يحرّك اصابعه كما لو كان ينقّط كلماته ويواصل هزّ قدميه فيفهم النسر ويبدأ الحكاية:

كنت أخطو وحيداً في ممرّ مدرستي كما خطوتُ ذات شتاء بعيد، يشغلني صمتُ الممرّ وهو يمتدُّ تحت عتمة خفيفة تتكثّف مع كلّ خطوة وتزداد. لم تمنعني العتمةُ من مواصلة المشي، ولم تكسر أملاً يراودني في رؤية زملائي، أحدّث نفسي بأنهم كبروا جميعاً وتوزعوا في الجهات، منهم من غدا موظفَ مساحة، كلّت عيناه من طول النظر عبر العدسة، وآخرُ حارساً ليلياً لمرسى الزوارق القديمة، وثالثٌ غادر مهنةَ جدّه وأبيه بعد أن زاولها أعواماً، لم يُطق الرائحةَ، كان يختنقُ كلّما هبّتْ رائحةُ الذبائح من حوله، ولم يفهم معنى ارتجاف اللحوم المقطّعة لحظةَ ينخزها الخطّاف، فضّل أن يغدو بائعَ ألبسة مستعملة، يغرقُ في الرائحة البشريّة الرطبة وقد خزنتها الثياب. كنت أستعيدهم واحداً واحداً كلما أوغلتُ في الممرّ.

فجأة أخذني الصوت، صوتٌ بعيدٌ غامرٌ، لم يكن نداءً ولا صيحةً، كان صوتاً فحسب، عارياً من شُبهة الشكل ولوثة الزمن. تركتُ الممرَّ يمتدُّ في العتمةِ وسرتُ باتجاه الساحة، كان مصباحٌ يشعُّ وسطها، معلّقاً في رأسِ عمود، تعلوه قبعةٌ معدنيّةٌ واسعة، مكتومة الفضّة، مسطّحة الحواف. رفعتُ رأسي ورأيتهم قربَ سور الطابق العلوي، أمامَ كلِّ صفٍ فتىً. عاودني الأملُ في رؤية زملائي، ورجوتُ أن يكونوا هم فأخذت أنادي، أخترعُ لكلٍ منهم اسماً وأنادي عليه، مع كلِّ نداءٍ يقتربُ فتىً من السور وحالّما يصدمه الإسم يتهاوى مثل دمية نسر محشوّةٍ بنشارة خشب، يدوّمُ في الهواء وقد مدَّ يديه، قبل أن يُتعبه التحليقُ ويسقط سريعاً ليرتطم بأرض الساحة المبلّطة، قريباً من الممرّ، ويسيلُ من فمهِ المفتوح دمٌ قليل.

كان الموت بالنسبة لنا، نحن جيل الحروب العراقية، يقول الحكّاء، وجه الحياة القريب وباباً واسعاً من أبوابها المبهمة، وربما منحتنا القصة القصيرة بالتقاطاتها العابرة فرصة لتركيز أقوالنا في لحظة خاطفة هي لحظة الوجود العميقة، دقيقة الرصد، موحشة التفاصيل، اللحظة التي تختزل التجربة في التقاطة، وتضيء في التقاطتها كوامن الشعور، وهي تسعى لحكاية العالم على نحو يليق بأحلامنا.

أعمى بروغل

على الرغم من كونه يملك نظراً ثاقباً قاده للفوز بكأس الرماية مرتين متتاليتين، فكان الثاني بين أبطال الرماية المتوّجين على اعداديات البصرة ـ صورته بين طلبة اعدادية المعقل الفائزين للعام ١٩٧٨، يرفع مداليته، كانت ما تزال معلّقة في غرفة الرياضة حتى وقت قريب ـ إلا أن حكايته انتهت إلى حمله صورة مختلفة في محفظة نقوده، دقيقة التفاصيل، بحجم عملة ورقيّة مثنية من المنتصف.

ـ إنه أنا، أعمى بروغل.

كان يُشير إلى الصورة، يقرّب اصبعه من الأعمى الرابع بين صف العميان المتعثرين وهو يحدّث أقرب جلسائه في مقهى أم البروم.

قبل أكثر من ثلاث سنوات رأى بروغل في حلمه، بلحيته الكثة وشعره الأشعث الطويل تحت طاقية مدوّرة، كان يشبه تخطيطه الشخصي: فلاّحاً سئماً من الأراضي المنخفضة، يبتهج بإفزاع سامعيه بقصص الأشباح والأرواح، كما قرأ عنه يوما. سمعه، في الحلم، يحدّثه بلغة هولندية فهمها على الفور: ستكون أحد عمياني!

كانت الجملة واضحة، فهمها فور سماعها، على الرغم من أنه لم يكن يعرف حرفاً واحداً من الهولندية ولا يتذكّر أنه سمع أحداً ينطقها من قبل، خشي لشدّة وضوحها أن تكون نبوءة لعمى قريب حتى أغمض عينيه وأخذ يتجوّل في المنزل بيدين مرفوعتين وخطوات بطيئة متعثرة، كانت أذنه تقوده لحظة يُغمض عينيه، وخطواته البطيئة المتتابعة تمضي به بعيداً، تنقله من أماكن معروفة يُدرك ألفتها من أصواتها وروائحها وملمس جدرانها، أصوات تضيئ في ذهنه ملامح وتنحت على مهل وجوهاً، وروائح تعيد لذهنه أماكن طالما شغلته، وملامس تحدّث يديه عن أسيجة صدئة وجذوع صلبة متيبسة وأبواب مقشّرة، خطوات متوجسة أخرى ويجد نفسه في أماكن لم يدخلها يوماً ولم يتعرّف على أصواتها وروائحها وملمس جدرانها، لا أسيجة ولا جذوع ولا أبواب، تزداد مخاوفه مع كلّ خطوة وترتجف يداه فيُنصت بكامل قدرته لما حوله، ليس سوى أذنه تقوده في دروب مخاوفه، لكنها تفزعه هي الأخرى، تمضي به لسنوات يرى نفسه فيها صبيّاً زلّت به قدمه فتهاوى في حفرة عميقة مظلمة، يسمع صرخته البعيدة كما لو كانت صرخة صبي سواه. تذكّر في تمرين عماه أنه رأى عميان بروغل من قبل، ربما في واحدة من المجلات القديمة، عندها استعاد نفسه من حفرتها، فتح عينيه وقد آلمته غمامة الضوء قليلاً وتوجّه إلى المخزن أسفل السلّم. عندما عثر على المجلة ورأى الصورة بعد بحث طويل، عرف أيَّ أعمى كان يقصد الصوت أن يكون بين الستة عميان، القبيحين، بثيابهم الفلمنكية الغريبة وعيونهم الذابلة. ليس الأعمى الأول الواقع في الحفرة، ولا الثاني، المنحني، الذي يتلقط بأذنه مأزق صاحبه، ربما كان

في طريقه للحفرة هو الآخر، ولا الثالث صاحب أشدّ الوجوه فزعاً، بل الرابع برأس الجرذ المرفوع، مفتوح الفم. قرّب الصورة لعينيه وأخذ يحدّق في العميان، يتأملهم واحداً واحداً كما لو كان يتأمل أصدقاء حميمين، ويتوقف عند الأعمى الرابع. نسي نفسه وهو يتأملهم في ضوء المخزن، بين متروكات المنزل.

لم يحدّث أحداً في موضوع الحلم أول مرّة، حاول نسيانه، لكن صورة الفلاّح صاحب القصص المفزعة أخذت تعاوده في صحوه، في الشارع وهو يسير، أو في المقهى حيث يفضّل أن يقضي نهاراته بين الوجوه الغريبة العابرة. غمامة رمادية تتحرّك أمام عينيه، قبل أن تستقر في صورة بشريّة واضحة، إنه بروغل، أصبح يعرفه الآن، وربما يترقّبه، ينتظر أن يراه كلما أغمض عينيه وواصل خطواته البطيئة المتوجسة، تتجسد ملامحه لحظات ثم تغيب، كما أصبح يدرك الآن أن عميان بروغل لم يكونوا غير بروغل نفسه، إنها ملامحه السئمة وقد توزعت على وجوه رجالية أنهكتها الظلمة الموحشة وشوهها الفزع، لحظات كافية لتعثره على الرصيف وانطفاء ما حوله من مشاهد ووجوه، الأمر الذي زاد يقينه بكلمات الرجل فعاود تمرينه مفكرا بالشوارع التي سيعبرها في عماه، والأيام التي سيعيشها. كان يقضي نهاراته مغمض العينين، تقوده يداه في البيت، والشارع، والمقهى، تمضي به في أماكن أليفة يعرف روائحها ويميّز أصواتها، وأخرى غريبة لم يدخلها يوماً، لم يكن يفتح عينيه إلا دقائق عندما يتمدّد على سريره، قبل أن يُسلم نفسه للنوم وقد أنهكه السير وخدّرته الظلمة، في نومه يرى حقولاً واسعة، خضرتها بنيّة ذابلة وأناسها بعيدون، لا يتذكر أنه رأى مثلها في صحوه يوما. كلما

تواصل حلمه تصبح الحقول أكثر سعة، تتغيّر خضرتها ويشتدّ سطوع شمسها، تبدو معدنيّة لامعة، ويغدو الناس أقرب، بقاماتهم القصيرة وملامحهم الشاحبة إنهم أشد وضوحاً وهم يواصلون السير نحو هدف ظلّ بالنسبة له بعيداً وغير مرئي. قبل أن يصحو بوقت قصير يعرف أنهم عميان الصورة يواصلون مسيرهم المتعثر من حقل إلى حقل، وأنه بينهم، رأسه مرفوعة تميل إلى الجانب كما لو كان ينصت لنداء بعيد، يده على كتف الأعمى أمامه ويد الأعمى خلفه على كتفه.

ـ إنه أنا، أعمى بروغل.

أخذ يحدّث كلّ من يجلس إلى جواره وهو يُشير إلى الصورة.

مكتبة الفكر الجديد

## أنت لست سمكة

مرّات قليلة تملّكه مثل هذا الشعور، يمكن أن يعدّها على أصابعه مستذكراً إياها واحدة بعد الأخرى، في مقبرة الحسن البصري مثلاً حينما كان التراب يسقط على جسد الشاعر القتيل محمود البريكان ـ ما كان جسده قبل يوم واحد فحسب ـ أو في الطريق إلى شرق البصرة، في واحدة من ليالي الشتاء شديدة البرودة خلال الشهور الأخيرة من حرب الثمانينيات، في اللحظة التي سمع فيها صيحة الطائر، يتراءى له وهو يكتب حكايته أنه سمع الصيحة في المقبرة أيضاً، مفاجئة قريبة خاطفة، وإن لم يكن قد رفع رأسه في هدوء المقبرة ونظر إلى السماء بشمسها الساطعة محاولاً أن يرى الطائر، أوقات لم يكن يتوقع أن يحياها يوماً وهاهو يرويها كما يروي حكاية عابرة بعد سنوات من وقوعها، من دون أن يدري إن كان ساعتها المسحاةَ التي تهيل التراب على الجسد أو حفنةَ التراب التي تصطدم بحافة الحفرة قبل أن تسقط في جوف القبر. لم يكن يسمع صوتاً في العراء الفسيح غير صوت التراب وهو يتهاوى ثم يستقر في القاع الجاف قريباً من الجسد البارد

الضئيل وقد نخرته الطعنات، وإن كان الجنديَ الذي يضم قبضتيه في جيبي قمصلته متكوّراً على نفسه في حوض الناقلة الروسية وقد ملأت رائحة دخان المحرّك الخانقة صدره، إنها أكثر الأوقات التي شعر فيها بالوحدة في حياته، وهو يمضي منفصلاً عن ظلمة بدت بعيدةً من خلفه متوجهاً لأخرى أمامه تضيؤها بين وقت وأخر نيران قصف متقطع، لا يسمع منها إلا صدى انفجار تبدّده الريح كما لو كان أحد ينفخ قريباً من أذنه فينتقل صوت النفخة بين صوان أذنه وقناتها موغلاً بين مطرقة وسندان وركاب، إنها اللحظة التي يتضخّم القصف فيها ليُصبح مثل هزيم رعد متقطع منزلقاً في موجات بين هلال وقوقعة يملؤها السائل مثل بحيرة صغيرة، سريعاً ما تتحوّل الموجات إلى إشارات حاملة معها شحنة مخاوفها قبل أن تتلاشى شيئاً فشيئاً وتغيب في أعماقه، أو هو الطائر الذي يصيح محلّقاً تحت سماء الليل بعتمتها الرمادية، كان الطائرَ لا ريب، طالما حدّث نفسه بذلك فما زال يُحسُّ دهشة الطائر المحلّق الصغير وهو يرى نيران شرق البصرة تومض وتختفي وناقلات العسكر تواصل اندفاعها مطفأة المصابيح على شوارع مترية.

ما أصعب أن يكون أحدنا في مكانين منفصلين في وقت واحد وأن يعيش حياتين مختلفتين ولو لوقت قصير، تتلبسنا في أوقات متباعدة أحاسيس لا نكون فيها كما نحن، أو كما نشعر دائماً إننا نكون، حالات ننفصل فيها عن طبائعنا ونغادرها لندخل طبائع أخرى كما لو كنا نفتح باباً في حكايات الطفولة، فتتحول بنا العوالم وتتبدّل من حولنا الجهات، لكنها ليست حكايات ولا قصصاً، إنما هي مشاعر تتملكنا فتغيّر أحوالنا، نخرج عن أجسادنا ونسكن أجساداً جديدة مدهشة،

ااا ، امله وعلى نحو مفاجيء بشراً آخرين، كما يمكن أن نغدو
ا.. ، او سبانات أو جمادات، يحدث ذلك أحياناً مثلما يحدث
ا... ان يرى وجهاً غريباً أمامه في المرآة، يشعر حال تمدّده على
ا .. وقد خرق العالمُ في صمت أول الليل بأنه ليس هو، إنما هو
ا... ما الذي أطلّ برأسه من حفرة ضيّقة في حديقة المنزل، عينان
. .. ان يفحصان العالم، تنظران نحو العشب وقد نسج فوقهما سقوفاً
.. . ، ممة، إنه يُدرك بفطرته الدودية إنها نظرته الأخيرة لكل ما
يراه فام تعد تفصله عن ضربة المنقار الموجعة سوى لحظات وهاهو
يقاوم خطواته الأولى باتجاهها ساحباً جسده من رطوبة الحفرة محرّكاً
اا اه المصيرة المشعّرة وقد أغمض عينيه في سلام.

ا.. ، الأكثر وضوحاً التي تلبّسه فيها مثل هذا الشعور هي المرّة التي
... بها على رصيف محطة قطار المعقل في السنتين الأوليين للحرب،
ا.. ما يزال طالباً في السادس الاعدادي يعيش تجاربه المتأخرة نسبة
ا ا عاش أقرانه من تجارب في الحياة والسفر، ولم يكن يعلم بالطبع
إن بينه وبين الدخول إلى الحرب أشهر قلائل يخلع فيها حياة ويرتدي
... كان وحيداً أيضاً يحمل حقيبة جلد صغيرة بحزام، أعلى عمود
المحطة الخرساني المضلّع على يمينه ساعة مستديرة بيضاء، عقاربها
السود تسير متمهلة، وعلى يساره، أعلى عمود آخر، جرس النحاس
الكبير الذي لم يمض وقت طويل على دقّته معلناً قدوم قطار جديد،
أمامه يمرّ القطار عرباته بلا كراس، أبطأ من سرعته حتى توقف لتكون
بمواجهته نافذة واسعة لإحدى العربات التي وضعت بدلاً من كراسيها
أسرّة حديد بطبقات مثبتة إلى الجدار، على كلّ سرير منها جريح

صامت ينظر نحوه وقد غطت أجسادهم شراشف بيضاء مبقعة، عشرات العيون المجهدة توجّه نظراتها نحوه، لم تكن نظرات بشريّة على نحو دقيق كما لم تكن تشبه نظرات الجدجد وهو يتفحص العالم من حوله للمرّة الأخيرة كأن ألم الأجساد بدّل طبائعها، ذلك ما أحسّه وقتها وما سيقوله لنفسه بعد وقت طويل.

على الرغم من شعوره بعمودي المحطة المضلّعين، بالساعة المستديرة، بجرس النحاس الكبير، وبحركة القطار وقد عاود اندفاعه البطيء فقد شعر الصبي إنه هو، قطار الجرحى الذين يواصلون النظر بعيون مجهدة نحو الصبي الواقف على الرصيف، وقد حملت نظراتهم معنى أن يمضي الانسان جريحاً ممدداً على السرير من مدينة إلى أخرى، إنها اللحظة التي أستعاد فيها حكاية دوّنها في دفتر الملاحظات، لم يعد يتذكر وهو يروي ذلك إن كان قد عثر عليها في كتاب قديم في مكتبة المدرسة أو التقطها من صحيفة أو نشرة معلّقة على جدار، دوّنها كما هي بعد أن منحته إحساساً غريباً بنفسه وبالأشياء الكثيرة من حوله وهي تتحدث عن تشونغ تسي، حكيم الصين الذي عاش خلال حكم الممالك السبع المتحاربة وقد كان يتنزه يوماً صحبة هوي تسي على شاطيء نهر، تمسح الريح أكمام ثوبه الواسعة فيلتمع قماشه وتحلّق أزهاره البيض مثل فراشات صغيرة تنوّر العالم، هكذا تبدأ الحكاية فالحكماء يتنزهون على الدوام، ينصتون للعناصر ويُحسون رفيف الأجنحة الهشّة لكل ما حولهم. حدث الحكيم هوي تسي بعد صمت طويل عن سمك الفضّة الصغير وهو يسبح في النهر كما يحلو له، وهذه مسرّته.

قال هوي تسي وقد أذهلته كلمة الحكيم:
أنت لست سمكة يا تشونغ تسي، فكيف عرفت مسرّته؟
ردّ تشونغ تسي:
إنك لست أنا، فكيف تعرف أنني لا أعرف مسرّة السمك.
لم يكن صبي الحكاية مثل تشونغ تسي يمضي متنزهاً على شواطيء الأنهر الهادئة منصتاً لحديث العناصر بعد حروب طويلة، كانت حياته أضيق من ذلك لكنها منحته أوقاتاً قصيرة نادرة يخرج فيها من طبيعته ليكون حفنة تراب أو قطار جرحى أو طائراً محلّقاً ينظر للنيران البعيدة تومض وتختفي.

مكتبة الفكر الجديد

# حامل المظلّة

# حامل المظلّة

بين مهن كثيرة زاولتها في حياتي، عملت، مرّةً، حامل مظلة، أقف في كشك زجاجي مكيّف، أصغر من أكشاك شرطة المرور وأكثر نظافة، إلى جانب بوابة واحد من الفنادق الكبيرة، ما أن تُقبل سيارة حتى أهرع فاتحاً مظلتي قبل أن يضع القادم، أياً كان، قدميه على الرصيف وأصحبه حتى مدخل الفندق. المسافة القصيرة بين الرصيف والبوابة، المفروشة في الغالب، هي مساحة عملي وتلك وظيفتي التي كانت أجواء المدينة السبب في وجودها، وهي المسؤولة عن استمراري فيها مدّة ليست بالقصيرة، فلم نكن نعيش أربعة فصول، اثنان منهما معتدلان، أحدهما مورق والآخر موحش وكئيب، كما هو الحال في كل مكان، إنما كان عامنا يُختصر في فصلين مجنونين، صيف قاهر، شمسه تُذيب الحديد، وشتاء أهوج أمطاره لا تكل، وأنا على امتدادهما أهرول حاملاً مظلتي.

هل رأيتم فلماً تاريخياً من قبل، واحداً من أفلام الرسالات السماوية، أو أفلام البطولة والفتوحات، حيث ترتبط الحريّة ارتباطاً غريباً بأدوات

التعذيب؟ أنتم، بلا شك، شاهدتم واحداً منها في الأقل، على سبيل تزجية الوقت بمتابعة الطريقة التي يسير فيها الناس إلى حتوفهم، أما من جهتي فقد أحببت هذه الأفلام، ولطالما أثارني فيها أن أرى سيداً ثخيناً يعبر في الهاجرة يلحقه عبد يحمل مظلة ويحث الخطى بإيمان كامل بما يفعل وكراهية عميقة، فيما ترتسم آثار أقدامهما على الرمال. شغلني أمر الرجلين والمظلة منذ رأيت المشهد أول مرّة، وما أن أبلغتني إدارة الفندق بقبولي في الوظيفة، من بين وظائف عديدة معلنة، حتى أحسستني نسخة محدّثة من عبد الصحراء، لكنني لست كذلك، يكفيكم أن تروني مرتدياً القبعة ذات الحافة، والبدلة السوداء المكوية، يتدلى ذيل سترتها المشقوق، وتنتبهوا لحذائي الأسود اللامع حتى يتأكد لكم بأن حامل المظلة بجانب بوابة الفندق، المنتظر داخل كشك، لم يركض حافياً ذات يوم، ولم يتبع سيده على الرمال اللاهبة. تتغيّر وتيرة العمل بحسب مزاج الطبيعة وتقلّب أجوائها، تهبط أحياناً فتنقطع السيارات وأنسى نفسي داخل الكشك، أفكر بأشياء حدثت من قبل، وأشياء لم تحدث، وتعلو مع غزارة المطر واشتداد حرارة الشمس، حتى لا أكاد أجد لحظة راحة أعود فيها إلى الكشك، أستند إلى المظلة وألتقط أنفاسي. غالباً ما تعمد إدارة الفندق في مثل هذه الأوقات إلى تكليف واحد من العمّال، غاسل صحون أو منظف غرف، للعمل معي مؤقتاً فالمهمة لا يكفيها، عندئذ، حامل مظلة واحد. يرتدي العامل بدلتي الثانية المغسولة والمكويّة على الدوام، يلبس حذائي الآخر، ويحمل المظلة الاحتياط ويباشر بالعمل. يحدث كثيراً أن تقف سيارتان في وقت واحد فنهرع معاً بمظلتينا المفتوحتين، لا تغفل

عيناي عنه مهما انشغلتُ مخافة أن يرتكب خطأ أو يتلكأ في عمله. إنها الأوقات التي أحرص فيها على أن أكون بكامل لياقتي، منتبهاً، خفيف الحركة، دائم الابتسام، لكن التعب يأخذني، رغم ذلك، فتبدو المسافة بين الرصيف والبوابة واسعة، لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، وأحسّني أهرول في صحراء فسيحة لا حدود لها. أعود للكشك فور انقطاع السيارات، دقائق قليلة فحسب لالتقاط الأنفاس، لم يحدث أن أغمضت عيني خلالها، لا في الليل ولا في النهار، لكنني رأيت المشهد كما لو كنت أحلم مفتوح العينين، كانوا جمعاً من رجال مسلحين ينزلون على سفح، يتطاير التراب تحت أقدامهم، يجرّون رجلين مقيدين التفّت حول عنقيهما انشوطتان، خوف مرير يرتسم على ملامحهما. انتظرت حتى أكمل المسلحون النزول وأصبحوا قريبين منّي فسألت أحدهم عن الرجلين.

- إنهما مذنبان.

قال وهو ينفض التراب عن حذائه، من دون أن ينظر إلي، فسألته على الفور:

- كيف عرفتم ذلك؟

ضرب حذاءه بقوة على الأرض، رفع رأسه مصوّباً نظره نحوي:

ـ كانا يحملان بندقيتي صيد، عندما اكتشفناهما حاولا الهرب.

حدّق نحو عيني وانفرجت شفتاه عن ابتسامة قاسية، لوّح بيده أمامي ثم مرّر أصابعه على رقبته في حركة قاطعة. غرق المسلحون الذين كانوا يراقبوننا في الضحك، بينما واصل الرجلان المقيدان النظر إلى الأرض، كأنهما مستغرقان في تفكير عميق.

لؤي حمزة عباس

لم أُغمض عيني عندما رأيت المشهد وحدّثت الرجل، أقسم على ذلك، حتى اللحظة التي فكرت فيها بأن الرجلين سيعدمان أمام الفندق، على بعد خطوات من الكشك، بعد أن يجروهما طويلاً، لكنني فزعت على منبه سيارة وقفت أمام البوابة، إنها المرّة الأولى التي أتخلّف فيها، ذلك ما قلته لنفسي وأنا أهرول فاتحاً مظلتي.

# النزيل

# حامل المظلّة

أجلس إلى مائدتي المعتادة في ركن مطعم الفندق، حيث تبدو الأصوات أقلّ حدّةً والأضواء أكثر خفوتاً، ركن منعزل يمكنني أن أتابع منه حركة النُدّل، وأن أدقق في وجوه النزلاء، أتأمل ملامحهم وأراقب حركاتهم من دون أن ينتبه أحدٌ منهم، وقتٌ طويل مرَّ منذ أن بدأت بمراقبتهم حتى حفظت طبائع كلٍّ منهم، طريقة أكله وانفتاح شفتيه أو ارتباك يديه، صمته وشروده أو حديثه المتقطع مع نفسه. لم يفكر أيٌّ منهم أن يغيّر شيئاً من عاداته، يعود من شروده أو يقطع حديثه مع نفسه ويرفع رأسه قليلاً لينظر نحو الركن البعيد خافت الضوء فيراني بمواجهته، أواصل النظر نحوه بدقّة وتركيز. مثلما يمكنني أن أرمي بصري خارج النوافذ الواسعة ملمومة الستائر فأرى السيارات القليلة تمرّ سريعة خاطفة، وأرى حيوانات الشارع تقترب لتتشمم الزجاج ثم تنظر إلى الداخل قبل أن تعاود سيرها على الرصيف أو تغيّر طريقها عابرة إلى الجانب الآخر. ربما كانت الحيوانات أول ما أثار انتباهي بملامحها التي لم تكن تتغيّر في كلّ مرّة تنظر فيها، كأنها لا ترى شيئاً

ولا تشمّ ما يدعوها للوقوف أكثر من لحظات، ليس ثمة شيء يُثيرها أو يدعوها، كأن لا مطعم خلف الزجاج، لا روائح ولا طعام ولا نزلاء يتوزعون على موائدهم، ينشغل كلٌ منهم بطعامه، لا يرفعون رؤوسهم ولا يلتفتون.

يوماً بعد آخر يراودني شعور بأن شيئاً ما يتغيّر، يغيب نزيل أو يحلُّ نزيل، تخامرني السعادة لحدث مثل ذلك، إحساس خفيف بالفرح يسري في دواخلي كلما فكّرت أن نزيلاً جديداً حلَّ في الفندق يمكنني أن أتأمل ملامحه وأراقب حركاته وهو ينشغل بطعامه كلَّ يوم. وجه وطريقة أكل، إرتجاف شفة أو ميل رقبة أو إرتباك يدين، صمت طويل ونظرات شاردة أو حديث متقطّع مع النفس، يحتدّ ويلين، لكن الغريب هو ما أشعره من تردّد في تنفيذ ما أقطعه على نفسي في ليالٍ متباعدة وأنا أسمع صيحات إستغاثة تتصاعد في هدوء الفندق حادةً وموجعةً، ربما في غرفة قريبة من غرفتي، أحسُّها تسري في الجدران وتتردّد في الأبواب وخزانة الملابس والمرآة المغبّشة لتستقرّ في خشب السرير، تنبض تحت وسادتي، قبل أن أسمع خبطاً ثقيلاً يعود بعده الفندق لصمته ثم تصلني أصوات خطوات خفيفة متلاحقة على الممر. كلَّ ليلة أسمع الصيحات فيها أؤكد لنفسي أنها لن تكون غير ليلتي الأخيرة في مثل هذا الفندق التعيس، لقد سأمت ذلك ولم يعد بمقدوري أن أسمع المزيد، لا طاقة لي على التحمّل، أصمت بعدها منقلباً على الجانب، تهدأ أنفاسي قليلاً وأنا أكرّر بلهجة قاطعة ما قلته من قبل: سأحزم حقائبي وأغادر، لكنني في الصباح أعاود مهماتي اليومية، أستحمُّ أطول وقت ممكن غير عابئ بما يتجمّع تحت

## حامل المظلّة

قدمي من ماء، ثم أحلق ذقني، أفتح فمي على سعته وأسحب شفتي السفلى بإصبعي وأنظر لمكان الضرس المخلوع، منذ سنوات وأنا أنظر له كلّما عنَّ لي، كأنني أنتظر أن ينمو مكانه ضرس جديد من دون أن أحسَّ به، أنام بهوّة واسعة بين أسناني وأصحو لأجد الهوّة قد طُمرت، إنه الضرس الجديد، نعم، ذلك ما أنتظر أن أقوله لنفسي مبتهجاً ذات صباح، أرتدي بعدها ملابسي التي هيأتها الليلة الماضية قبل أن آوي إلى السرير وأنزل السلّم الضيّق متوجّهاً نحو مائدتي، يدعوني الركن المنعزل خافت الضوء فأستجيب وأنا أفكّر بالنزيل الجديد لحظة يدفع الباب ويدخل، لحيته خفيفة ابيضّت بعض شعراتها وعيناه صغيرتان حائرتا النظرات، من خلفه أرى حيوانات الشارع، وأرى السيارات القليلة تمرّ سريعةً خاطفة.

## حكاية فاطمة

جيوغرافي، أحدّث نفسي وأفكّر بكلب بعينين مغطاتين يجوب الشوارع بحجلة خشب عابراً من رصيف إلى رصيف. أسوق هذه الحكاية لا على سبيل التمهيد ولكن لأتخفف من عبء الدخول إلى الحكاية التالية التي ما زالت تشغلني منذ عقود، حكاية صبيّة اسمها فاطمة ـ هل كان اسمها فاطمة حقاً؟ ـ مرّت أمام عيني في خبر قصير نشرته صحيفة محليّة بلا صورة من أخبار أواخر تسعينيات القرن الماضي، عصارة أعوام الحصار القاحلة، كانت تعيش حالة مرضيّة نادرة، فالصبيّة التي لم تتخط العاشرة تُحس حرارة في عينيها كلما أغمضتهما، هكذا يقول الخبر، سريعاً ما تتحول الحرارة إلى حكّة لاهبة، وما إن تفتح عينيها حتى يزحف نمل رمادي من بين رموشها عابراً أجفانها المحمرة منتشراً على وجهها في أسراب متقاطعة. كان نملاً ناعماً يلتمع مثل حبّات رمل بأطراف خيطية سريعة الحركة، ذلك ما أكّده أكثر من رجل ذهب خصيصاً لمشاهدة الصبيّة عن قرب والتأكد من غرابة الأمر، نسي الكثيرون لساعات جوع سنوات الحصار، غابت عن أرواحهم لوعة الليل وقسوة النهار وتوجهوا إلى بيت الصبيّة التي لم يجد والدها بداً من أن يفتح نافذة غرفة الاستقبال المطلّة على الشارع ثم يرفعها على كرسي خشب ويتركها تلاعب الريح شعرها الناعم الطويل، تطل على الجموع بعينين حائرتين تعاود اغماضهما كلما أتعبتها رؤية الوجوه الغريبة، أناس كثيرون لم يجتمعوا يوماً في مكان جمعتهم أسراب ديدان رمادية تخرج من عيني صبيّة لم تتخط العاشرة. كلما حاولتُ استعادة تفاصيل الخبر كما قرأتها تداخلتْ مع ذكرى أبعد من حكاية فاطمة بأكثر من عقد تتردد في نفسي مثل نبوءة موحشة، هل سنكون

في سنوات الحرب؟ نعم، تماماً، حرب الثمانينيات التي فتحت باباً من العتمة في حياة العراقيين لم يُغلق أبداً، ستكون فاطمة ابنة الجندي الذي شاركنا واحداً من ملاجيء شرق البصرة، قريباً من نهر جاسم، إنها وليدة أحلامه، فليس من الغريب أن يولد الناس أحياناً من أحلام بعضهم، ويربي بعضهم بعضاً في منامات طويلة مؤرّقة. لو كان لأحدنا أن يحلّق لينظر إلى المشهد بعيني طائر سيرى الحفرة الطويلة الضيّقة المسقّفة على عجل، المموهة بجذوع نخل، ملجأ يضيق ليلة بعد أخرى حتى يغدو أشبه بحفرة ينوس في قاعها ضوء شمعة وحيدة، كان أنين الجندي يتواصل مثل آلة عذاب تحفر الليل، حتى اعتدنا وجع الصوت ولم نعد ننام، نحن شركاء الملجأ، إلا بعد أن يجهدنا الأنين وتحفر الآلة أرواحنا، كان الصوت ينقطع مع برودة أول الفجر المحمّلة برائحة تراب ندي ويصمت العالم من حولنا، لحظات تلتمع فيها عينا الجندي المجهدتان كأنه ينظر بعيداً في الزمن فيرى أشياءً مبهمة تحت سماء بغيوم دكناء، أشجاراً تتحرّك، تميل قليلاً وهي تنتقل من مكان إلى مكان، وحيوانات تزحف على الرمال، وهو يواصل الحلم بصبيّة لم تولد بعد علامتها الفارقة أسراب من النمل تتوالد من عينيها، يحكي مع نفسه كما لو كان يتوعّد أرواحنا: سترونها تطلّ من نافذة منزلها، جموعكم تملأ الشارع من أجل رؤية صبيّة تتعذب. هل حدث ذلك حقاً؟ هل تواصل أنين الجندي بانتظار اللحظة التي يحدّث نفسه فيها بما رأى؟ وهل فتح والد الصبيّة، جندي الملجأ القديم، نافذة الغرفة المطلّة على الشارع بعد أن أعان ابنته على الصعود على كرسي خشب لتكون في مرمى نظر العيون الغريبة؟ لا أحد يمكن أن يؤكد ذلك،

على الرغم من رؤيته عن قرب، لا أحد يمكن أن ينفيه. أعود لحكاية الكلب الذي مازلت أراه يجرّ قدميه عابراً الشوارع كما لو كان يسحب جرواً قتيلاً. إنه يشبه إلى حد بعيد إنساناً معاقاً يمكن أن يصادفنا في أي مكان، إنساناً يتقافز في حديقة مستديرة متحايلاً على إعاقته في مشهد بالأبيض والأسود تخدشه خطوط رفيعة وأرقام مقطعة تظهر وتختفي، لا أعلم إن كنت رأيته مع تميم على الناشيونال جيوغرافي أو سواها، لكن ثمة ضوء شمعة ينوس في نفسي كلما تذكرته، وأنين يتوالى.

## كلٌّ منا حكاية عابرة

# حامل المظلّة

ثلاثة أعوام مرّت منذ انتقلَ مع عائلته للإقامة في منزله الحالي، ثلاثة أعوام طيّبة مرّت عليه كما لو كانت ريحاً رخيّةً ليس لها من أثر سوى ارتجاف ورقة أو سقوط أخرى، بغير صوت تنفصل عن الغصن ثم تهبط على الرصيف، تنفخها الريح فتتقلّب قليلاً قبل أن تستقرّ قريباً من الحافة الإسمنتية، منسية ساكنة. الشارع القصير بنهايته المغلقة كفيل بمنح سكّان المنطقة شعوراً بالأمان فليس ثمة فرصة لعابر غريب لاختراق حياتهم والمرور إلى الجهة الأخرى، بقايا معمل الألبان المنتصبة بأعمدتها الحديد المتآكلة وخزّاناتها الكبيرة المنحنية في نهاية الشارع، خلف الجدار العرضي القصير، واحدة من ميزات المنطقة، ربما هي الميزة الأهم إلى جوار قلّة عدد المنازل، ثمانية منازل متقابلة فحسب، أربعة على كلّ جانب، تختلف في أعمارها ومساحاتها وهندسة بنائها، لبعضها حدائق واسعة مرتّبة الأشجار تحت شرفات زجاجيّة بسقوف مقرنصة، وأخرى صغيرة بلا حدائق أو شرفات، لكنها جميعاً أخذت تمنحه شعوراً حميمياً كما لو كان يحيا في منزل واسع

بثماني غرف فسيحة يخترقه شارع هادىء وقصير.
تبدو الأعوام الثلاثة كافية بما يتخللها من مناسبات سعيدة أحياناً وحزينة أحياناً أخرى للتعرف إلى الجيران، منزلاً بعد آخر ومناسبة بعد مناسبة وجاراً بعد جار، ينمو بداخله إحساسٌ تُختصر معه كلُ أسرة بحكاية واحدة، إنها حكايتها التي لن يكون لها حضور أو مشاركة في حياة الشارع من دونها، فليس كلٌ منّا في النهاية سوى حكاية قصيرة عابرة، ذلك ما كان يردّده مع نفسه كلما انشغل فجراً بتنظيف عتبة منزله ورشّ المساحة المقابلة من الشارع بالماء، لتبدو لامعة، محدّدة ونظيفة، قليلة الانحناء كدرع سلحفاة. سيُختصر المنزلُ الواسع ذو الحديقة المرتّبة والشرفات، المقابل لمنزله، بأصغر أبنائه، الصبي الضئيل وهو يتحدّث عن الطائر، دخل الصالة متوجهاً نحوه مواصلاً حديثه المتقطّع بحرارة واندفاع، يداه ترفرفان مثل جناحين، لم يفهم منه الكثير وقتها وهو يحدّق نحو عينيه الزائغتين، حتى إذا صمت الصبي فجأة وخرج من الصالة مواصلاً حركة يديه أدرك أنه لم يكن يحدّث غير نفسه، وأن عينيه كانتا تجيلان النظر باحثتين عن أشياء لم يكن لأحد غيره أن يراها. لن يعود للحديقة المرتّبة أو للشرفات الزجاجيّة أو للسقوف المقرنصة أيُّ حضور بعد رؤيته الصبي، ستمحو العينان ذلك كله ليظلّ الصبي وحده علامة البيت المضاءة ليل نهار، مثلما سيُختصر البيتُ الثاني إلى يمين الجدار بحكاية الجدّة التي ستمحو بدورها ثلاثة أجيال تحيا في منزل واحد بلا حديقة أو شرفة، أصغر منازل الشارع وأقدمها، لم يصادف أن رآها سوى مرّة أو مرّتين عبرت فيهما من أمام منزله صحبة ثلاث نسوة، أقل أو أكثر، حاول أن يتذكرها فور أن أخذت

## حامل المظلّة

حكايتها تتردد، تمنى أن يستعيد ملامحها على الرغم من صعوبة ذلك، فما أن يبدأ وجهها بالتشكل في ذهنه حتى تتداخل معه ملامح يعرفها، إنها ليست هي طالما كانت تشبه أمه أو جدّته إلى هذا الحد، إنها ليست هي على أية حال، ذلك ما يبدو واثقاً منه بعد محاولات عصيّة للتذكّر لم يكن يخرج منها إلا بملامح زائفة لسيدات مررن في حياته وتركن ملامحهن على نهر أيامها، لكن الحكاية أقوى من الأسماء عادةً، أبقى من الملامح والوجوه، سيكرر ذلك مع نفسه وهو يستمع لحكاية الجدّة وقد ماتت فور اصطدام سيارة أجرة مسرعة بها وهي تعبر الشارع العام، طارت بعباءتها السوداء الواسعة وحطّت كما لو كانت تنزل ببرشوت على الرصيف، هكذا كان يحلو للجيران رواية الواقعة، لكنه لم يكن يتصوّر الجدّة في هبوطها الصامت إلا كما تهبط ورقة على الرصيف، تتقلّب قليلاً ثم تستقر مفتوحة الفم زائغة العينين. كان السائق وقتها منشغلاً بجهاز التسجيل، يعبر من أغنية إلى أخرى، تضيف الرواية، لتموت الجدّة على الفور موتاً طائراً بين أغنيتين. هكذا أصبح لبيتين من بيوت الشارع حكايتاهما الموصولتان خلال ثلاثة أعوام، الحكاية التي تدفع الأسماء والوجوه للنسيان، تختصر الأعوام وتنهض وحدها في حياة الشارع حتى ليبدو الصبيان المرضى والجدّات المحلّقات أكثر حضوراً من الآخرين، مهما كانوا أصحاء ويافعين.

## من مكانٍ بعيد

كان قد بذل جهداً في إعادة الحياة إلى الشقة فور شرائها، دفع للعمال بسخاء فكانوا يحضرون قبل موعد العمل، كهربائيون ونجارون وعمّال تأسيسات مائية، يقفون أمام الباب بانتظاره، يدخّنون ويتحدّثون، حتى إذا حضر وفتح الباب اندفعوا يعملون في وقت واحد. لم يكن من الصعب تبيّن سعادته وهو يتابع العمل متنقّلاً بين الغرف، محدّثاً الجميع بصوت مرتفع. وكما هو متوقّع انتهى كلّ شيء قبل الموعد المحدّد، جاءني عند الغروب بسيارته، وفي الطريق إلى الشقة حدّثني عن ألوان الغرف، طيور ورديّة صغيرة على مساحة واسعة زرقاء، إنها غرفة النوم، طبعاً طبعاً، ما أن تدخل حتى تحسّها تحلّق من حولك. نقر بأصابعه على المقود وتحدّث عن سيراميك الحمّام، لا أحب الأبيض، تعرف ذلك، أخضر خفيف لامع كأنك تستحمُّ في بستان. المرّة الأخيرة التي رأيته فيها كانت مع زيارة التهنئة بالسكن الجديد، انشغلت عنه بعدها، نسيته ونسيت الشقة بطيورها وبساتينها.

منذ أيام رنّ الهاتف قبيل الفجر، نظرت إلى الجهاز قبل أن أستوعب أن

أحداً يتصل في مثل هذا الوقت، وأن عليّ أن أرد. كان صوته ضعيفاً لا يكاد يُسمع كأنه يحدّثني من مكان بعيد، سألني إن كنت مستعداً لشراء الشقة.

ـ أية شقة؟

سألت، ولم أكن قد صحوت تماماً.

ـ شقتي.

ـ شقتك؟

ـ نعم شقتي، ركّز معي أرجوك، لن نختلف أبداً.

بعد يوم واحد أو يومين وصلني خبر موته، احتجتِ بعض الوقت لاستيعابه كما لو كنت ما أزال في غفلة النوم، وفكّرت في اتصاله الغريب.

## ما تشاء من الكلمات

# حامل المظلّة

أشياء عديدة يمكن أن تقودك باتجاه الدكان، الشارع وبلاط الرصيف والرائحة، حيث تصادفك واجهة المصرف الملكي على الناصية وقد تآكلت حوافّها وتبدّل لونها أكثر من مرّة حتى لم يعد لها لونٌ معلوم، يمكن أن تواصل السير بغير أن تفكر برائحة الجلود التي تفوح مانحةً الشارع الضيّق شبهةَ فضاءٍ حيواني مكتوم، عليك أن تتحلى بقليل من الصبر وتواصل السير على الرصيف فلم يعد أمامك الكثير، لا ترفع عينك عن البلاط المضلّع محكم التعشيق فعند الخط الأبيض المرسوم بطلاء دهني لامع وكثيف، تخفت التماعته مع كلّ قدم تمرُّ فوقه وتخفّ كثافته، يمكنك أن تتأكد أنك شديد القرب من الدكان، لم تعد تفصلك عنه سوى خطوة واحدة تعبر معها الخط فتكون بمواجهته. لا تخشى أن تراه فارغاً، لا شئ فيه، لا شئ على الاطلاق سوى كرسي من الخيزران العتيق، ساقه الأماميّة اليمنى مربوطة بقطعة قماش بنيّة متربة، ستكون محظوظاً إن رأيت الرجل يجلس فوقه، للحق هو يُحب قضاء النهار في دكانه لا يغادره إلا لعذر، كان مشغولاً لسنوات طويلة

بزبائنه القادمين من مختلف البقاع، سنوات خير لم ينقطع الناسُ فيها عن المجيء، رجال ونساء، شيوخ وشبّان، جادّون إلى درجة يبدون معها متعكري المزاج بوجوه معدنيّة صلبة، وهازلون لا يعنيهم أن يجيب عن أسئلتهم الغريبة المتلاحقة بقدر ما يمتّعهم أن يروه يؤدي مهمته، وهو مع هؤلاء وأولئك يقوم بعمله بأمانة لافتة، يداه مسترخيتان على فخذيه، كفّاهما مفتوحتان وأصابعهما ممدودة، غالباً ما فكر أنه الوضع الأمثل لمن يؤدي عملاً مثل عمله لعقود طويلة، يُرجع رأسه قليلاً إلى الوراء ويفتح عينيه على سعتهما، لو كان مشهده يشتمل على شبح ابتسامة لتأكد لمن يقف أمامه، خارج الدكان، أنه يتهيأ لالتقاط صورة فوتوغرافيّة، لكنه لا يُحبُّ الصور، ستتأكد من ذلك وأنت تعاود النظر لجدران الدكان العارية من حوله، لا صورة، ولا خارطة، ولا أثر. منذ سنوات لم يعد مشغولاً بغير ترقّب زبائنه وقد بعدت المسافة بين زبون وآخر، وبعد أن أجهده الانتظار وأمرضه الجلوس الطويل، عليه أن يقرَّ بذلك، لم يعد معنياً بأمر الزبائن، تناساهم أو كاد، وأخذ يجلس على الرغم من تعبه مواصلاً العمل، بالأمانة المعروفة عنه، من أجل نفسه، لم يكن يتطلّب الأمر بعد ما مرّ من سنوات غير أن يفتح فمه ويلوك برهاوة ويُسر. ستكون زيارتك له عزاءً فريداً بعد أن نُسي تماماً ولم يعد يعني أحداً، حتى جيرانه أصحاب دكاكين الحلاقة والخياطة وباعة الملابس المستعملة، لم يعد بالنسبة لهم أكثر من حكاية قديمة تجلس على كرسي خيزران في دكان فارغ. سيفزُّ من اغفاءته الخفيفة وينظر بعينيه الكليلتين ليتأكد أن زبوناً ما فكر أخيراً بزيارته، يعيد وضع يديه على فخذيه، ويعدّل رأسه ناظراً نحوك ليعرف أيَّ نوعٍ من الزبائن

## حامل المظلّة

أنت، قبل أن يُلقي برأسه إلى الوراء. في تلك اللحظة تستطيع أن ترمي عليه ما تشاء من الكلمات، أقدم الكلمات أو أحدثها، أثقلها أو أخفّها، أكثرها صدقاً أو أغربها كذباً وأعجبها رياءً، طالما أنه فتح فمه فهو على استعداد لالتهامها جميعاً، ستُحسُّ بمتعة نادرة غير المتعة التي أحسستها من قبل وأنت ترى رجالاً يقضمون المصابيح أو يلوكون المسامير، متعة لن يمنحها غير سماع الكلمات وهي تتكسّر في فمه مثل قشرة حبّة الفستق. يُغمض عينيه مواصلاً عمله، لكل كلمة صلابة وطعم، ذلك ما ستدركه وأنت ترى ملامحه تتغيّر مع الكلمات، تشتدُّ وتقسو وترقُّ وتلين، أتمنى أن تجده ما يزال جالساً يترقّب زبائنه. ستعيش سعادة لا مثيل لها وأنت تسمع الكلمات تتكسّر، ولن تعود بالنسبة لك صالحة للاستعمال، سعادة لا تنقص أو تزول مهما عاودت زيارة الرجل، ومهما ألقيت له من كلمات.

حامل المظلّة

# وقت التسلية

# حامل المظلّة

لم يكن بهلواناً يمشي على حبل، ولا حاوياً يرقّص الأفاعي، ولا مروّضاً يلاعب النمور، يداه عاريتان، لا سحر ولا خفّة، وليست لديه أية أداة، لا حلقة، ولا مزمار، ولا سوط، ليس سوى جسده، عُدَّته الوحيدة في نوع غريب من التسلية، نوع نادر لم يصادفه أحد من قبل، ولم يعش مغامرته. وإذا كان البهلوان يسير خفيفاً على حبله، والحاوي ينفخ في مزماره ويميل برأسه مع الثعبان، ومروّض النمور يسوط الهواء بحركة رشيقة باهرة وهو يراقب عيون نموره المتربّصة ويُنصت لأنفاسها، وسط حماسة الجمهور، يلتقط توترها مع التماع حدقاتها، ويهجس تغيّر مزاجها من تصاعد أنفاسها، فإن صاحبنا، رجل التسلية، لا يفعل أكثر من أن يُغمض عينيه وهو يتمدد في الحفرة بصمت وسلام بانتظار أن تردم عليه.

حينما تكون الحفرة بعمق متر تقريباً، ويتجاوز بقاؤه فيها خمس عشرة دقيقة مطموراً تحت التراب، فإن الأمر سيكون مغامرة بالفعل، مثلما سيغدو تسلية يتجمع حولها الناس غير مصدّقين بأن رجلاً يُدفن في

[illegible] ساوى فوقه التراب، وقد يُبالغ بعض الظرفاء فيقضون [illegible] عشرة بتعديل التراب فوقه باحتراف وتأنٍ بعد رشّه [illegible] الماء، كما يفعلون مع القبور عادة، حتى إذا مرّت الدقائق [illegible] الجمهور وتحسّبهم أخذوا يحفرون بهمّة، ومع اجتيازهم [illegible] الحفرة أو أكثر بقليل يلقون بأدواتهم على الحافة [illegible] الحفر بأيديهم، كلما نزلوا أكثر زادوا من سرعتهم، والرجل [illegible] أصابعهم كما لو كان تمثال إنسان مسجىً، إنهم يحفرون [illegible] بأسرع وقت ممكن، حتى إذا تكشّف وجهه نفخ بصوت [illegible] طاير لنفخته التراب الذي بقي على فمه وفي فتحتي أنفه مثل [illegible] عندها يتعالى هتاف الناس غير مصدّقين وقد انقطعت [illegible] وهم يتزاحمون حول الحفرة.

[illegible] في مرّات متباعدة، يراه الناس على غير موعد يسير وحيداً [illegible] أو يخرج من باب محطة القطار بعد أن مشى إلى جوار [illegible] الحديد، تمرّ به القطارات سريعة خاطفة في الليل وفي النهار، [illegible] بعض الركاب لحظات ولا يفكر أحدهم أنه رأى رجلاً يسير في [illegible] حش لا أشجار فيه ولا ماء، شبح عابر آخر، يحدّثون أنفسهم [illegible] خون على كراسيهم.

[illegible] حين يعلو سأم الناس ويسود الصمت بينهم، تجفّ مشاعرهم [illegible] بعد أن يجهدهم عناء العمل اليومي واعتياد التفاصيل، [illegible] الحياة محفوظة عن ظهر قلب كأنها عيشت من قبل، وتلوح [illegible] أشدّ صلابة وأكثر تغضّناً مثل ثمار الجوز، لا غرابة ولا دهشة ولا [illegible] مع من مفاجأة تهبّ فتُنعش أشجار الروح وتحرّك أوراقها. لا

وقتاً محدد لسأم الناس ولا سبباً بعينه، فلكلٍ وقته وأسبابه، لكنهم في العموم ينزلقون إلى السأم في أوقات متقاربة تتقاطع أحياناً وتنفصل أحياناً، وتعيش ذروتها معاً كما لو كانت تصبُّ في ساحة مجدبة، إنه وقت السأم والصمت الجماعيين، الوقت الذي يفكر فيه كثيرون برجل الحفرة، يستعيدون مع أنفسهم حكايته، حتى وإن لم يكونوا قد رأوه من قبل.

كان قدومه مناسبة غريبة مثل تسليته، تُخرج الرجال عن رتابة أيامهم فيغيّرون بعض عاداتهم، يمرّون في طريق عودتهم من رصيف الميناء إلى منازلهم بشجرة السدر المعمّرة قرب جسر الخشب، حيث يُفضّل في العادة أن يستريح، إنهم يحيونه وقد تأكدوا من مجيئه بعد أن وصلهم الخبر مبكراً، يدقون أجراس درّاجاتهم الهوائية ويلوّحون له، وكان يكتفي بالنظر إليهم، لا يلوّح ولا يرد، لكنهم يواصلون طريقهم مبتهجين، وفي منازلهم يتحدّثون عن رجل الحفرة الذي عاد. بعضهم يذكرون أنهم رأوه من قبل، كانوا صبياناً وقتها، ركضوا نحو الشجرة ورأوه جالساً تحتها كما هو اليوم، مرّت سنوات وهو على حاله، لم يتغيّر إلا قليلاً، كأن الزمن لا يمرّ من حوله ولا يغيّر فيه الشئ الكثير. كان آباؤهم وقتها قد خرجوا عن رتابة أيامهم، مثلهم تماماً، وغيروا بعض عاداتهم، دقّوا أجراس درّاجاتهم ولوّحوا، وكان قد اكتفى بالنظر، لم يلوّح ولم يرد.

عندها ينشغل رجال محدّدون بتهيئة الحفرة على الضفة، على بُعد أمتار من شجرة السدر حيث جلس، لا ينظرون نحوه ولا يحدّثونه، إنهم رجال المشاغل وأصحاب الواجب ممن تراهم يتقدمون الناس

في الأحزان والمسرات، يحضرون في الأوقات المناسبة تماماً، وأحياناً قبلها بقليل، يشمّون المناسبة قبل وقوعها فينتظرون أمام الأبواب مترقبين صراخ أهل المنزل ليهجموا هجوم رجل واحد فالوقت وقتهم ولن يمنعهم أحد عن تأدية ما خُلقوا من أجله. يقضون الظهيرة بالحفر، أدواتهم جاهزة على الدوام، يتناقشون فيما بينهم، يتصايحون، يختلفون ويتفقون، وقبل أذان العصر يكونون قد أنجزوا عملهم وجهّزوا الحفرة على أكمل وجه، وهو الوقت الذي يبدأ الناس فيه بالتجمّع، يأتون جماعات وقد حثّوا بعضهم، هيا، لا تتأخر، دقائق، دقائق فحسب. لقد خفّ السأم في نفوسهم، يمكنك أن تتأكد من ذلك وأنت تسمعهم يتبادلون الحديث في الطريق إلى الحفرة، وقد تسمع أحدهم يُعلّق ضاحكاً، وها هي وجوههم تلين ويخفّ تغضّنها، يمكنك أن تقترب لترى بنفسك، إنه وقت التسلية.

الغريب أن لا أحد ينظر نحو الرجل، كأنه غير موجود، يمرّون به من دون أن يلتفتوا إليه، إنهم مشغولون بالحفرة المستطيلة المرتّبة، حتى إذا حان وقت النزول التفتوا، كأنهم تذكروه فجأة، ورأوه ينهض على مهل ويخطو باتجاههم، عندها يفتحون له ممراً بينهم يضيق كلما اقترب من الحفرة، يتابعونه بإمعان، يتفحصون خطواته البطيئة ويرونه يخلع نعاله الجلد ويتركه على الحافة، ثم ينزل بقدمين صلبتين تيبّس جلدهما وتشقق كعباهما، وكما لو كان يستلقي على سرير بكامل ثيابه يحرّك جسده الممدّد قليلاً حتى إذا استقرّ وانقطعت حركته اندفع رجال المشاغل لردم الحفرة، يهيلون التراب على القدمين أول الأمر ثم يصعدون إلى باقي الجسد، حتى إذا وصلوا قريباً من الرأس أغمض

الرجل عينيه وانقطعت أصوات الناس حول الحفرة.
خمس عشرة دقيقة، قد تزيد قليلاً لكنها لا تنقص فكثير من الواقفين يشغلون بمتابعة ساعاتهم، يضبطون وقت تسليتهم، ومع أول صيحة يعاود الرجال الحفر بأدواتهم ثم بأيديهم، ويعلو اللغط من حولهم. يتذكر الناس المشهد بتفاصيله الدقيقة، يتحدّثون مبتهجين عن نافورة الغبار وهي تصعد مع أول نفخة من فم الرجل، ذلك ما سيعيدون حكايته مرّة بعد أخرى لوقت طويل.
لم يتركوا للمشهد أن يكتمل أمام عيونهم فقد استداروا عائدين مع وقوف الرجل وسط الحفرة وقد عفّره التراب، لم يشاهده أحد منهم ينحني على الحافة كأنه يزيح عن روحه ثقل التراب، ولم يسمعه ينفخ مراراً قبل أن يكون بإمكانه أن يصعد ويلبس نعاله، الأغرب من ذلك أن أياً منهم لم يقترب منه، قبل نزوله إلى الحفرة أو بعد خروجه منها، لم يحدّثه ولو حديثاً عابراً، ولم يسأله عن اسمه وقد بقي بينهم نهاراً كاملاً، إنه رجل التسلية، ذلك اسمه وتلك مهنته، الرجل الذي يؤمّن لهم حكاية مبهجة لوقت طويل.

الرجل الذي لم يغادر مدينته يوماً، يتنقل في الليل بين المدن. يُحلّق فوق البحار والمحيطات، عابراً من مدينة إلى أخرى، مثل طائرة جامبو تمرّ فوق المطارات، لا يُحب النزول في المطارات، إنها أسوأ بوابات المدن، يُحدّث نفسه في كلّ مرّة يضطر للنزول فيها، لا شيء غير مكبرات الصوت الطنانة، والنظافة المبالغ فيها، كأنك في مستشفى خاص. في الموانئ يتوقف ليتأمل المشهد ويلتقط الأنفاس، تسحره، منذ الطفولة، مشاهد السفن العالية، يتكسر الموج على جنباتها، كما تسحره الشوارع بأضوائها الملوّنة وسياراتها القليلة الخاطفة، عادة ما تكون مبللة في مثل هذه الساعة من الليل.

من قلعة إلى كاتدرائية إلى جسر تأخذه قدماه وهي تعدو بخفّة مثل قدمي عداء مسافات طويلة. إنها تعرف أهدافها. في الساحة المفتوحة على الصرخات، وسط الكولسيوم، توقف الليلة البارحة، بعد جولة مدهشة في روما، روما مدينة فاتنة بالنسبة لرجل لم يغادر مدينته يوماً، كانت المدرّجات خالية مثل الشوارع لحظة وقف فيها، وكان

المصارعون يُستدعون من السجون البعيدة، إنه يراهم يقطعون أنفاقاً طويلة معتمة ممراتها واطئة قليلة الهواء قبل الوصول إلى الساحة، يقفون في ضوء النهار القوي يبلل العرق أجسادهم ويغطيهم الضجيج، حيوانات تزأر في المحاجر القريبة، تدور حول نفسها وتئن، وناس يملأون المدرّجات الصخرية، تتعالى صيحاتهم مع كلّ مصارع يدخل الساحة. لا يقصد بطيرانه الليلي المدن وحدها بمطاراتها وموانئها وشوارعها المضاءة، إنه يطير حيثما يدعوه النداء الذي يبدأ خفيضاً لا يكاد يُسمع ثم يأخذ بالارتفاع حتى ليبدو مثل صيحة استغاثة تتصاعد من جوف جبل، يستمع للصوت يملأ عليه المكان فيفتح نافذة غرفته، يسحب نفساً عميقاً ويُغمض عينيه، إنها عادته قبل أن يُسلم نفسه لإحساسه العميق بالطيران.

قبل أيام قليلة عاوده النداء، كان يكرر اسماً تراءى له مثل اسم مقاطعة أو مدينة ما من مدن العالم، جوهانس سامبو، بعدما تكرر مرّات بالنبرة الواضحة نفسها تأكد أنه ليس اسم مقاطعة أو مدينة، إنه اسم إنسان، نعم هكذا أحسَّ وتأكد، انسان لم يستطع الصراخ في اللحظة التي قُتل فيها، رأى وجهه حالما أغمض عينيه وبدأ طيراناً طويلاً عبر فيه بحاراً وصحارى، لم يضطر للنزول في مطار، ولم يستجب لرغبته المحببة بالنزول في ميناء ومشاهدة السفن، نزل في مزرعة واسعة، عند مساحة صغيرة متربة فيها، لم تُنبت عشباً منذ عقود، كانت تتصاعد من حوله أصوات رعد تتعالى، مع تكرارها تبيّن أنها ليست أصوات رعد، إنها انفجارات، ومع الانفجارات أصبحت حكاية جوهانس واضحة في ذهنه، كأنها رويت على مسامعه بهدوء وتفصيل.

## حامل المظلّة

سمع أصوات رجال بعيدين، لحقتها خطوات تصعد سُلّماً خشبياً وخبط أبواب، ثم أتاه صوت الكولونيل يوجين دو كوك، رئيس الوحدة سي ـ ١٠، وهي فرقة سريّة أسستها حكومة جنوب أفريقيا العنصرية، يتصل برؤسائه ليخبرهم، بنبرة لا انفعال فيها، بمقتل أفريقي يدعى جوهانس سامبو أثناء الاستجواب، وضع سماعة الهاتف وأملى على زملائه ما تسلّمه من أوامر بنقل الجثة على الفور ونسفها بالمتفجرات، أُخذت الجثة إلى مزرعة، حيث وقف الرجل في المساحة الصغيرة التي ما تزال متربة حتى اليوم، وضعت بين كوم من المتفجّرات وفجّرت. جُمعت القطع المبعثرة، كُوّمت، وفُجّرت مرّة أخرى. كرّرت العملية حتى لم يبق شئ من جوهانس سامبو ليُنسف. في وقفته سمع الرائد تشابيز كوبلر، وهو أحد مرؤوسي الكولونيل دو كوك المشرفين على العملية، يتحدّث عن أملهم في أن يأكل النمل بسرعة ما تبقى، ويمحو أي أثر.

الرجل الذي لم يغادر مدينته يُنصت للنداء ويطير، ليلة بعد ليلة، يعبر أمكنة ويطوي سنوات، يعيش في كل ليلة وجهاً آخر من حكاية تتكرّر، لا حدّ لوجوهها، كأن ثمة من يترقّبه فيها، يتأمل تحليقه العالي و يترصد خطاه.

## تاريخ المدن

# حامل المظلّة

في ساعات الفجر الأولى من يوم الثالث والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٤٨ أُعدم شفيق عدس، وكان عمره، مصادفة، ثمانية وأربعين عاماً. لم تمنع برودة الفجر، ولا عتمة المكان، ولا رهبة المشنقة، آلاف البصريين من التجمّع، حضر الكثير منهم في ساعات مبكرة من الليل وجلسوا على الساحة الترابية الواسعة في منطقة العزيزية، قريباً من قصره الذي شارف بناؤه على الانتهاء. كانت ثمة طيور قليلة متفرّقة تخترق سماء الساحة، لم يرها أحد، ولم يسمع رفيف أجنحتها. بعضهم تمددوا على التراب، غطوا وجوههم بيشاميغهم، ووضعوا أيديهم تحت رؤوسهم، وأسلموا أنفسهم لإغفاءة قصيرة، وكثيرون منهم ظلوا يقظين يتحدّثون محدّقين تجاه المشنقة التي تضيؤها، بين وقت وآخر، مصابيح سيارات الشرطة كما لو كانت تنبثق من الظلام بأعمدتها الخشب، يعتمل في نفوسهم شعور موحش وكئيب، أقرب إلى الخوف في وطأته وبرودته وصلابته.

لم يُعدم عدس مرّة واحدة، أُعدم مرّتين. بعد المرّة الأولى أنزله ثلاثة

من رجال الشرطة ـ هم الذين سيظهرون إلى جانب الجثة المعلّقة في صورة الاعدام الفوتوغرافية التي سأراجعها بعد أربعة وستين عاماً، مع ما أراجع من وثائق، لكتابة فصل البصرة في موسوعة تاريخ المدن العراقية في القرن العشرين ـ وضع الطبيب يده على الرقبة المكسورة وتحسس بأصابعه الشريان، ثم وضع يده على باطن الرسغ بعد أن شكّ في الأمر، وأنتظر ليتأكد، التفت إلى مفوّض الشرطة الذي انحنى على يمينه كأنما ليسمع من مكانه النبض، وقال بصوت خفيض:

ـ ما يزال حيّاً.

حمل رجال الشرطة الجسد مقيّد اليدين عن أرضية المشنقة، رفعه اثنان منهم وانشغل المفوّض بتثبيت الحبل حول الرقبة. كان الرأس يتلاعب بين يديه، شاهده الناس يسقط على أحد الكتفين وكلما حاول إسناده سقط على الكتف الأخرى، قبل أن يستقر في الحبل.

لم تكن واقعة اعدام عدس، التاجر اليهودي، بتهمتي تهريب الأسلحة إلى اسرائيل ومساعدة الشيوعيين، بكل ما شهدته من ملابسات، حدثاً عابراً في حياة المدينة. أدرك الآن، بعد الانشغال الطويل بكتابة الفصل ومراجعة وثائقه، أن لكل مدينة لحظة موت فاصلة تنتظرها زمناً قد يمتد، لكنها توقن أنها ستحياها يوماً بقسوة بالغة ووضوح وهي تخوض حروباً وتشهد أوبئة وفيضانات، تُحيي أعياداً صاخبة، وتنتحب في مواكب حزن، تتقلّب أحوالها وتتبدّل وجوهها وهي تسير في ليل وفي نهار. إنها اللحظة التي ستعيشها كلّ يوم في ساعات الفجر الأولى، كما لو كانت تُنفّذ من جديد، تكرر نفسها في أحاديث الناس، في اغفاءاتهم القصيرة، وفي مخاوفهم الصامتة ـ فوقهم تمرّ طيور لم يرها

أحد، ولم يسمع رفيف أجنحتها ـ حتى وإن لم يكونوا قد ولدوا ساعة الإعدام، ولم يروا المشنقة تنبثق من الظلام.

## لقطة قريبة لعين الغزال

# حامل المظلّة

كثيراً ما تنبثق في أذهاننا فكرة عارضة نراها، لوقت قصير، أكثر أفكارنا قوّة، وأشدها تعبيراً عن سلوك بني آدم، لكنها سريعاً ما تغيب مثلما ولدت فننساها وننسى شغفنا بها، غير أن الفكرة التي انبثقت في ذهن أحمد عبد الهادي، كاتب القصة القصيرة، كانت تتردد بوضوح، تعاوده كلما خلا مع نفسه حتى تجاوزت الوقت الذي تستغرقه، عادة، مثيلاتها. يُنصت لها كلما وقف أمام النافذة في ساعات الصباح الأولى، ينظر للشارع الخالي وأبواب المنازل المغلقة، ويرى الأشجار العالية تتحرك، كانت قد رسخت في ذهنه وهو يشاهد دفاع الحيوانات المستميت عن بنات جنسها في برامج عالم الحيوان، يمكننا أن نؤكد أن أحمد عبد الهادي، كاتب القصة القصيرة، ليس من المولعين بمشاهدة التلفزيون، غالباً ما تنفرّه الأخبار بوقائعها المعتمة وتجهده المسلسلات الفارغة المملّة وبرامج التسلية والإعلانات، بل هو من متابعي برامج الحيوان، يمكن أن نعدّها ولعه الوحيد إلى جانب كتابة القصص، يعرف أوقات عرضها ويلاحقها بشغف من قناة إلى أخرى،

في معظم الأحيان يوقف اللقطات على نظرات الأسف التي ترتسم على عيون الحيوانات وهي تلتفت لوداع أحدها وقد عثرت أقدامه بعد فرار طويل، تراه للمرّة الأخيرة وقد نهشته الحيوانات المفترسة. تؤلمه عيون الغزلان أكثر من سواها فيُبقي لقطاتها القريبة ثابتة، يتأملها طويلاً ثم يُطل من النافذة، يتوجّه بعدها إلى المطبخ ليصبَّ كوباً من الشاي، ثم يعود بخطوات متمهلة إلى التلفزيون كما لو كان يطمئن على نظرة الحيوان الآسفة. يومها سمع الفكرة تتردد، لا يتذكر إن كان واقفاً أمام النافذة أو منشغلاً بكوب الشاي أو مواصلاً خطواته بين المطبخ وغرفة التلفزيون عندما سمعها بوضوح، ارتجفت يده، ذلك ما لا يستطيع نكرانه، وهو يسمعها تردد بيقين صاف بأن الانسان هو الكائن الوحيد الذي يخون أبناء جنسه، واستغرب كيف غابت الخيانة عن أذهان علماء الاجتماع وهي الصفة الأهم، بتصوّره، والعلامة الناصعة التي ميّزت الإنسان منذ وطأت قدماه على الأرض، فإذا كان لابن آدم أن يتفاخر يوما بين سائر المخلوقات فسيفخر لا بكونه كائن العقل أو اللغة، كما يُحكى عادةً، بل بكونه الكائن الوحيد الذي قُدّر له أن يخون مرّة بعد مرّة حتى أصبح كائن الخيانة بامتياز.

يمكنه أن يتحدّث عن الفكرة وقد ولّدت لديه رغبةً بالكتابة عن الخيانة، الموضوع الذي لم يشغله من قبل، ربما كتب عنه صفحات قليلة لم تعنِ له وقتها شيئاً فنسيها وانشغل بأشياء أخرى، لكنه بدأ الكتابة يقوده احساسٌ بغرابة الفكرة وظلاميتها، وعلى الرغم من اندفاعه لم يخلُ الأمر من منغصات غالباً ما تعكر مزاج كتّاب القصص وتغيّر صفو الكتابة لديهم، فمع كلِّ جملة يجد نفسه يغرق في تفاصيل صغيرة لم

تكن تستهويه فيمزّق ما كتب ويعاود الانصات لعلّه يبدأ من جديد، يكون التلفزيون مطفأ حينها والستارة مسدلة، لكنه يرى عين الحيوان واضحة أمامه، وقد تصاعد شعور الأسف فيها، ويرى نفسه يتحرّك باتجاهها، يقترب منها، ويسمع صوت الأشجار العالية. في تلك اللحظة سمع رنين الهاتف، يتذكره كما لو رنَّ قبل وقت قصير، سار باتجاهه حتى وجد الجهاز في المطبخ حيث تركه في الصباح، انقطع الرنين بعض الوقت ثم عاد من جديد، اقترب أكثر ونظر إلى شاشة الجهاز المرمي قرب الصحون النظيفة الفارغة محاولاً معرفة اسم المتصل لكن الشاشة لم تكن تحتوي غير رقم مبهم مما زاد من قلقه فلم يكن من المعتاد أن يرنّ هاتفه في ليل أو نهار، ناهيك عن تكرار الاتصال مرّة بعد أخرى، كان قلقاً، ذلك ما لا يستطيع نكرانه أيضاً، فلطالما تملّكه القلق مع كلّ رقم غريب. مع رنّة الهاتف للمرّة الثالثة حسم أمره وأجاب، كان الصوت غريباً كما توقعه، لم تكف كلمة واحدة للتعرف على صاحبه.

ـ السيد أحمد عبد الهادي، كاتب القصة القصيرة؟

طمأنته اللغة الرسمية قليلاً، أعادته إلى نفسه، فأجاب:

ـ نعم، تفضل.

ـ أحمد، ألم تعرفني؟

هتف صاحب الصوت بألفة فأبعد أحمد عبد الهادي الجهاز عن أذنه ثم أعاده ليقول:

ـ عفواً، لم أعرفك بعد.

ـ أنا علي

ـ مَنْ؟

ـ علي ادريس، زميل الدراسة.

يمكن القول أن أحمد عبد الهادي، كاتب القصة القصيرة، عاش في تلك اللحظة أشدّ ما يخشاه في شهوره الأخيرة: أن تكون ذاكرته موضع اختبار فجائي.

ـ أهلاً، أهلاً سيد ادريس.

قال مدارياً حرجه.

ـ لا لا، كل شي إلا هذا، هل نسيتني؟..

تساءل صاحب الصوت بإلحاح، فلم يكن أمام أحمد عبد الهادي إلا أن يعيد ترحيبه كأنه لم يسمع شيئاً.

ـ أبحث عنك منذ شهور، قال صاحب الصوت، سألت العديد من أصدقائنا القدامى، ولم يوصلني إليك سوى المجلة.

ـ المجلة؟

ـ نعم المجلة، أعرف ولعك بكتابة القصص، وأقرأ لك أحياناً، وجدت واحدة من قصصك القصيرة منشورة فيها، كنت يومها عند طبيب الأسنان، فقلت مع نفسي أنه أول الطريق..

ـ .....

ـ لا تستغرب أستاذ أحمد، كانت صالة الانتظار هادئة فقلت أتحايل قليلاً على الألم، اتصلت بهم على الفور، طلبت عنوانك فاعتذروا، وحينما حدّثتهم عن زمالة الدراسة اكتفوا بأن أعطوني رقم هاتفك.

ـ أشكرك والله، كلّفت نفسك..

ـ أبداً، كنت قبل الاتصال أفكر بأن أزورك في بيتك أو مكتبك

لكنني ما أن سمعت صوتك حتى تمنيت أن تزورني أنت، ستكون مناسبة جميلة خصوصاً أنك لم تزر المدينة منذ غادرتها إلا مرّات قليلة متباعدة..

وهكذا بعد حوارات قصيرة مشابهة أنهى علي ادريس اتصاله محققاً أولى رغباته بسماع صوت زميل الدراسة والتواصل معه، كان شعوره بالسعادة قد أنساه ألم أسنانه فقد وضع قدمه على أول الطريق، أما أحمد عبد الهادي فلم يغادر قلقه لا بسبب ذاكرته التي لم تعنه على معرفة زميل الدراسة القديم بل لأن جملة الزميل عن كونه لم يزر المدينة إلا مرات منذ غادرها بدت له أكثر من جملة عابرة. شغله الأمر نهاراً أو أكثر قبلَ أن يعاود الاهتمام ببرامج الحيوان وبمحاولة الكتابة، وإن بإيقاع أبطأ، كان ينسى نفسه ويغادر قلقه وهو يتقدّم من مقطع إلى آخر، رنَّ الهاتف من جديد فاستعاد على الفور الجملة التي أقلقته وتمنى لو كان بمقدوره أن يسأل زميله عنها، لكنه لم يسأل وترك الاتصال يسير على هوى زميله وهو يحدّثه بالتفصيل عن المقالب القديمة والسفرات والمدرّسين، كما يتذكر الطلبة، يزداد حبوره ويعلو صوته وهو يتحدّث عنهم، لم يكن يفلت منه اسم من أسمائهم حتى تصوّره قد دوّن ذلك كله وهو الآن يقرأ من أوراقه، لكلِّ صف ورقة، ولكلِّ سفرة وكلِّ مقلب، فجأة وضع الأوراق جانباً وعاد للحديث عن رغبتِه بلقاء أحمد عبد الهادي، قال، بعدها، بجملة حاسمة:

ـ كلُّ شيء مهيءٌ يا صديقي.

لم يفهم أحمد عبد الهادي، كاتب القصة القصيرة، الجملة، فسأل زميله بصوت خفيض:

ـ ماذا تعني؟
ـ التكسي الذي سيقلّك من أمام محطة القطار، والفندق، ولأني أعرف أن وقت الكتّاب ثمين فقد حجزت لك يوماً واحداً قابلاً للتمديد.
ـ هذا كثير..
ـ أبداً أبداً، سعادتي أن نلتقي، نتجول قليلاً ونركب الزورق، طالما كنتَ تُحب ركوب الزوارق.
الجملة الأخيرة شغلت أحمد عبد الهادي أكثر،
أربكته،
أخذ يسأل نفسه إن كان قد أحب ركوب الزوارق يوماً.
بعد يومين كان في محطة القطار مستجيباً لدعوة زميله، الدعوة التي سمعها تتكرر فور أن أغلق الهاتف، وقد أعادت في ذهنه نداء المدينة البعيدة، وصل في تمام الثانية بعد ظهر الخميس، أحب أن يقضي ساعة في المحطة قبل انطلاق القطار، يحجز التذكرة ويتجوّل قليلاً، يمكن ان يتناول كوباً من القهوة التركية في كافتيريا المحطة، من أجل رائحتها التي تكمّل أسفاره. ما استغرب له حقاً هو موعد السفر، فأن يحجز له زميله في الفندق يوم الجمعة يعني أن يسافر ظهر الخميس كما يُحب دائماً، الخميس بالنسبة له هو اليوم المفضّل للسفر، وأن يهيء تكسياً ينتظره أمام المحطة يعني أن يدعوه للسفر بالقطار، وهو وسيلة السفر التي تسحره، كان اليوم والوسيلة كافيين ليعاود قلقه وهو يراقب حركة المسافرين القليلين عبر زجاج الكافتيريا، مفكراً بزميل الدراسة الذي لم يتذكره حتى الآن، وبغرابة أن يعرف عنه تفاصيل صغيرة لم يعرفها أحد غيره. في الساعة الثالثة تحرّك القطار بعد أن ترددت أصداء

صافرته في المحطة، القى أحمد عبد الهادي رأسه على حافة الكرسي وأغمض عينيه. لو كنا نكتب قصة قصيرة بدورنا عن كاتب قصة يسافر بالقطار لمدينته التي لم يزرها منذ وقت بعيد لتوجب علينا أن نقول إنه يعيش واحداً من أوقات سعادته، أن يسافر يوم الخميس في عربة قطار، وأن يسمع أصداء الصافرة تتردد من حوله، تتردد ولا تذوب.
حينما وقفت سيارة التكسي أمام الفندق فكر أحمد عبد الهادي أن يرفع رأسه وينظر إلى عيني السائق في المرآة المستطيلة، يرى الحلقتين المعتمتين تحت عينيه ويدعوه للعودة إلى المحطة، لكنه لسبب ما نزل حاملاً حقيبته. كان استقبال الفندق ضيقاً، ثلاثة أمتار أو ثلاثة ونصف، منضدة خشب صغيرة تحت سُلّم خلفها عُلّقت لوحة المفاتيح، ستة مفاتيح في صفين، دقّ بيده على المنضدة وانتظر بعض الوقت، سيستغرب كلام زميله وهو يحدّثه معتذراً بأنه لم يجد فندقاً غيره، يسأله إن كانت باقي الفنادق محجوزة، ليس في أي منها غرفة شاغرة، لكنه يصمت، ينظر نحو النهر ويقول بأن المدينة لم تعد فيها فنادق كما كانت، عليك ان تبحث طويلاً للعثور على واحد ما زال يستقبل الزوار. في الغرفة عاد للتفكير بقصته، من النقطة التي توقف عندها، أخذته القصة لفكرته ورأى نظرة الأسف في عين الغزال، سحب الستارة التي غيّرت أشعة الشمس لونها، وفتح النافذة المطلّة على الشارع الخالي، لم يلحظ خلو العالم من حوله ولم يسأل زميله صباح الجمعة وهما يتمشيان على الشاطيء قبل أن يركبا الزورق ويمضيا في النهر، كانت المدينة وهو يراها من نافذة الفندق تشبه ذكرى بعيدة، بلا بشر ولا تفاصيل، حتى الناس الذين التقاهم كانوا كمن يؤدي أدواراً

ـ ماذا تعني؟
ـ التكسي الذي سيقلّك من أمام محطة القطار، والفندق، ولأني أعرف أن وقت الكتّاب ثمين فقد حجزت لك يوماً واحداً قابلاً للتمديد.
ـ هذا كثير..
ـ أبداً أبداً، سعادتي أن نلتقي، نتجول قليلاً ونركب الزورق، طالما كنتَ تُحب ركوب الزوارق.
الجملة الأخيرة شغلت أحمد عبد الهادي أكثر،
أربكته،
أخذ يسأل نفسه إن كان قد أحب ركوب الزوارق يوماً.
بعد يومين كان في محطة القطار مستجيباً لدعوة زميله، الدعوة التي سمعها تتكرر فور أن أغلق الهاتف، وقد أعادت في ذهنه نداء المدينة البعيدة، وصل في تمام الثانية بعد ظهر الخميس، أحب أن يقضي ساعة في المحطة قبل انطلاق القطار، يحجز التذكرة ويتجوّل قليلاً، يمكن ان يتناول كوباً من القهوة التركية في كافتيريا المحطة، من أجل رائحتها التي تكمّل أسفاره. ما استغرب له حقاً هو موعد السفر، فأن يحجز له زميله في الفندق يوم الجمعة يعني أن يسافر ظهر الخميس كما يُحب دائماً، الخميس بالنسبة له هو اليوم المفضّل للسفر، وأن يهيء تكسياً ينتظره أمام المحطة يعني أن يدعوه للسفر بالقطار، وهو وسيلة السفر التي تسحره، كان اليوم والوسيلة كافيين ليعاود قلقه وهو يراقب حركة المسافرين القليلين عبر زجاج الكافتيريا، مفكراً بزميل الدراسة الذي لم يتذكره حتى الآن، وبغرابة أن يعرف عنه تفاصيل صغيرة لم يعرفها أحد غيره. في الساعة الثالثة تحرّك القطار بعد أن ترددت أصداء

صافرته في المحطة، القى أحمد عبد الهادي رأسه على حافة الكرسي وأغمض عينيه. لو كنا نكتب قصة قصيرة بدورنا عن كاتب قصة يسافر بالقطار لمدينته التي لم يزرها منذ وقت بعيد لتوجب علينا أن نقول إنه يعيش واحداً من أوقات سعادته، أن يسافر يوم الخميس في عربة قطار، وأن يسمع أصداء الصافرة تتردد من حوله، تتردد ولا تذوب.
حينما وقفت سيارة التكسي أمام الفندق فكر أحمد عبد الهادي أن يرفع رأسه وينظر إلى عيني السائق في المرآة المستطيلة، يرى الحلقتين المعتمتين تحت عينيه ويدعوه للعودة إلى المحطة، لكنه لسبب ما نزل حاملاً حقيبته. كان استقبال الفندق ضيقاً، ثلاثة أمتار أو ثلاثة ونصف، منضدة خشب صغيرة تحت سُلّم خلفها عُلّقت لوحة المفاتيح، ستة مفاتيح في صفين، دقّ بيده على المنضدة وانتظر بعض الوقت، سيستغرب كلام زميله وهو يحدّثه معتذراً بأنه لم يجد فندقاً غيره، يسأله إن كانت باقي الفنادق محجوزة، ليس في أي منها غرفة شاغرة، لكنه يصمت، ينظر نحو النهر ويقول بأن المدينة لم تعد فيها فنادق كما كانت، عليك ان تبحث طويلاً للعثور على واحد ما زال يستقبل الزوار. في الغرفة عاد للتفكير بقصته، من النقطة التي توقف عندها، أخذته القصة لفكرته ورأى نظرة الأسف في عين الغزال، سحب الستارة التي غيّرت أشعة الشمس لونها، وفتح النافذة المطلّة على الشارع الخالي، لم يلحظ خلو العالم من حوله ولم يسأل زميله صباح الجمعة وهما يتمشيان على الشاطيء قبل أن يركبا الزورق ويمضيا في النهر، كانت المدينة وهو يراها من نافذة الفندق تشبه ذكرى بعيدة، بلا بشر ولا تفاصيل، حتى الناس الذين التقاهم كانوا كمن يؤدي أدواراً

قصيرة عابِرة، يدخلون من جهة ويغيبون في أخرى ويظلُّ واقفاً أمام النافذة يفكر أن ينزل ليتمشى قليلاً، ربما يحلق شعره عند أول حلاق يصادفه، يجلس بعدها في أقرب كافتيريا، يتناول كوب قهوة من أجل الرائحة التي يُحب ويعود إلى الغرفة بانتظار لقاء الغد. فرش منشفته على الوسادة وتمدّد على السرير، أتته أصوات الأشجار العالية تحرّكها الريح، وعاود التفكير بالخيانة، محدّثاً نفسه بأنها الفكرة التي قطع طريقاً طويلاً للوصول إليها.

# (١)

# عمليتان جراحيّتان

بسبب عواصف ترابيّة متلاحقة أُجّلت رحلةُ الطائرة إلى موعد غير معلوم. أتعبنا الانتظار في الصالة النظيفة الواسعة قبل أن يأتي الباص ليقلّنا إلى فندق المطار، ركبنا صامتين حاملين بطاقاتنا، وحقائبنا الثقيلة، وجوازات سفرنا. بقينا أياماً في الفندق لا نفعل شيئاً تقريباً، مجهدين جراء تأخر انطلاق الرحلة غير الآمنة، نأوي إلى غرفنا ونعود لنلتقي عند مواعيد محددة، في مطعم ضيّق وطويل مثل قاعة ألعاب رياضيّة، ننظر إلى بعضنا قبل أن ننشغل بالطعام لنتأكد أننا مازلنا في كامل عددنا، نتناول طعامنا ونعود إلى الغرف. شاركني الغرفة شاب نحيل مثل قصبة، يميل قليلاً إلى الجانب عندما يسير. فور دخوله الغرفة حدّثني، من غير أن أسأله، عن سفره لإجراء عمليّة جراحيّة لساقه المريضة، عملية حاسمة بعد اثنتين شاقتين لم تمكناه من السير دونما ألم. اقترحت عليه أن يظل ممدّداً على السرير وأتولى مهمة احضار طعامه، مقابلٍ أن يسليني بالحديث عن عمليتيه الجراحيّتين. كنت أراقبه يأكل كلّ يوم ويواصل الحديث بدقة وتفصيل، كما لو كان يجري العمليتين من جديد. مرّت العواصف على نحو سريع وانتهت أيام الفندق.

## (٢)

# عين واحدة

فكّرتُ بما يمكن أن يشغله الآن، كلَّ مرّة أتصلُ فيها بأحدهم أفكر بما يمكن أن يشغله لحظة الاتصال، أحياناً أقطع الاتصال قبل أن يرنَّ الهاتفُ لشعوري بأن مَنْ أتصلُ به على غير ما يرام، ولأني كنت واثقاً من وقوفه أمام المرآة، يُحدّق بعين واحدة إلى وجهه، كأنه يراه لأول مرّة، فقد تركت الهاتفَ يرنُّ قبل أن أسمع صوته وقد عاد لمرحه القديم، قال لي هل تُصدّق أن اسم الطبيب أميتاب، إي والله، أميتاب، لكنه لا يشبه أميتاب في شئ.

اتفقنا على أن أزوره بعد أيام، يا أخي تلحق، قال، ثم أني لم أرفع الضماد بعد لأعرف ماذا فعل أميتاب.

كان عليه أن يحافظ على مستوى واحدٍ، مكتوم، من النور، ذلك ما سمعه من الطبيب والتزم به بالحرف، حتى حينَما ألقى برأسه إلى الجانب وقد أطفأت الطائرةُ أنوارها لم يخلع نظارته؛ لم يكن يفكر لحظتها بغير الرحلة التي طالت أكثر مما كان يظن، وبالعالم الذي لم يعد يراه بغير عين واحدة من خلف زجاج نظارته التي لم يخلعها ليل نهار.

قررتُ، قبل أن تنتهي المكالمة، أن أزوره بعد ثلاثة أيام، ربما دعاني

مرحه لذلك، لكنني لم أزره حتى اليوم، كنت قد نسيته، كعادتي، نسيت وقوفه أمام المرآة والضمادة على عينه، في النهار تأخذني الدوّامة بعيداً عن نفسي فأنسى أشياء كثيرةً، وفي المساء أعود فأتذكر، في اللحظة التي أستلقي فيها وتغمرني الظلمة تعاودني أسماء ووجوه ومواعيد، فكرت أن أتصلَ به مرّة أخرى لكنني استغربت، قبل أن أرنَّ، لوقوفه أمام المرآة ينظر إلى وجهه، أذهلني الضماد الذي ما يزال على عينه ولم أتصل.

## (٣)

# النظرة

لا يمكن أن نعدّ السنوات القليلة التي قضاها مع المرض رحلة طويلة بأية حال، إنها أشبه بسفرة مدرسيّة مقارنة بأمراض يقضي أصحابها جلَّ أعمارهم في رحلة صعبة مجهدة، تذوي خلالها أبدانهم وتنطفئ نظراتهم حتى ليعودوا مثلما كانوا أول مرّة، كائنات من لحم قليل، بلا صوت ولا ذاكرة.

مثل قطار سريع كان أمين يطوي ثلاث محطات في رحلة مرضه، لا يتوقف في كلٍ منها إلا قليلاً، غرفته في بيته في البصرة ـ كلما كان يخلو فيها إلى نفسه، وحيداً مع مرضه، وقبل أن يغطَّ في نوم متقطّع، يستعيد

رغبته القديمة بأن يغيّر طلاء جدرانها ويبدّل اضاءتها ـ ومستشفى الأورام في بيروت، محطته الثانية، ودار الرعاية الطبيّة في نيودلهي.
قبل أربعة أيام اكتملت آخر عملياته الجراحيّة، بإمكان رئته أن تعاود نشاطها الآن، سليمة معافاة، لكن عجزاً مفاجئاً في القلب أقلق طبيبه الذي بدت عيناه زائغتين وهو يتحدّث باختصار غير مفهوم، متجنباً النظر لعيني إبراهيم، أخ أمين الأصغر ورفيق رحلته. لم يمهله العجز طويلاً، يومان خاطفان، أسرع من رحلة قطار وأقصر من سفرة مدرسيّة، أطلق جهاز تنظيم النبضات بعدهما صافرته الطويلة المؤلمة، ولم يعد على شاشته غير خط ضوئي رفيع.
في دار الرعاية الطبيّة، في الردهة التاسعة من جناح الجراحة، مات أمين وبقي إبراهيم يدور وحيداً في شوارع نيودلهي، بانتظار موعد اقلاع طائرة شحن لا تطير إلا مرّة واحدة في الأسبوع، مترقّباً اللحظة التي سيعود فيها بأخيه إلى البصرة، مفكراً بالسنوات التي مرّت، بأيامها ولياليها، كان أمين يقف فيها في مقدمة الصورة، يصوّب عينيه نحو الكاميرا، إنها تتكرّر من أجله، تلك الجملة التي تشير لمجموعة صغيرة من الطلاب: الواقفون في الأمام، لم يكن مرّة بين الواقفين في الصف الخلفي، أو ممن لا تبين وجوههم لأي سبب. يتذكر دهشة المعلمين حينما يعرفون بأنهما أخوان، كأنهما قادمان من قارتين بعيدتين ولم يلتقيا إلا في المدرسة، كانت أخوّتهما بالنسبة للآخرين مصادفة غير محسومة.
في الساعة السادسة من مساء كلِّ يوم يعود إلى الدار، يجلس في حديقتها النظيفة الواسعة التي تكاد تخلو من الناس في مثل هذا

## حامل المظلّة

الوقت، من بين نوافذها الكثيرة يختار نافذة بعينها، مفترضاً أن أخاه يقف خلفها، يسحب الستارة وينظر نحوه. لا ترمش عينا إبراهيم ولا يُبعد نظره عن النافذة طالما يواصل أخوه النظر. إنه يقف في الضوء من جديد، مصوّباً عينيه نحو الكاميرا. في اللحظة التي تنزل الستارة فيها، بعد أن تنزلق الحديقة في الليل ولا يكون فيها أحد سواه، يعرف أنه يأذن له بالانصراف، فيعود إلى غرفته في الفندق القريب.

# عودة القنّاصين إلى منازلهم

قلت:

ـ كلُّ شئ ممكن..

على عادة الكثيرين ممن يتركون الكلام معلّقاً، غير محسوم، فواصلَ النظرَ إليّ منتظراً أن أضيف شيئاً يمنح حديثي معنى، وبعد أن قدّر أنني لن أقول عاود الحديث من النقطة التي توقف عندها:

ـ إنه ينتقل من مدينة إلى أخرى، يدور سنواتٍ طويلةً، ويرى العالم في كلِّ وقت من ناظور بندقيته.

قال، كأنني لم أسمع ذلك منه قبلاً، وربما ظنَّ أنني سمعته ولم أفهم، أو فهمت ولم أقدّر أهميته.

قلت:

ـ مثل آلاف القناصين، كلٍّ يوم له مكان، يواصل مهمته في مراقبة الناس والطيور والأشجار من ناظور بندقيته، ويرى العالم محدداً وصغيراً.

لم يكن مقتنعاً بما أقول، ذلك ما بدا واضحاً على ملامحه، فاقترب مني أكثر وقال:

ـ ليس الأمر نزهة، ناس وطيور وأشجار، ومن ناظور البندقية لن يكون المشهد محدّداً وصغيراً، تختلف الأشياء والمسافات في عين العدسة، لن تبدو كما هي عليه في الواقع.

ـ تختلف؟

سألتُ فخفَّ انفعاله وتغيّرت ملامحه، هدأت قليلاً، وأجاب:

ـ ما أن يُغمض إحدى عينيه ويضع الأخرى على فتحة الناظور حتى يغيب عالمٌ ويكون عالمٌ جديد، وهو يعبر بينهما بلمحة خاطفة، يتغيّر خلالها كلّ شئ ولن يظل الناس والطيور والأشجار على حالهم. اطلاقة سريعة واحدة تهزّ المشهد وتحطّم تماسكه، يسقط أحدهم، يُغمض هو عينه لحظة يراه، يفضّل أن يتصوّره يتهاوى ببطء ويُطيل أمد السقوط، إنها عادته، قبل أن يفتح عينه ويحرّك بندقيته باحثاً عن مشهد جديد. بدأت الفكرة تشغلني بالفعل وأنا أتصوّر الرجل يتنقل من مكان لآخر وبيده بندقيته الطويلة، حتى إذا أراد أن يرى الأشياء على غير ما يراها الناس صعد على أقرب مرتفع، بناية أو تل أو برج مراقبة أو اتصالات، ثبّت جسمه وركّز بندقيته على كتفه، في نقرة الكتف كما يقول، أغمض عينه غير المستعملة ووضع الأخرى على الفتحة. ستتبدّل المعالم أمامه وتتغير الأشياء، كأنه يتنقل بخفّة بين غرفتين.

أنزل نظراته عنّي، إنه ينظر ليديه الآن، يتفحّص أصابعه المشبوكة ويقول:

ـ ما يُقلقني حقاً هو بأية عين يعيش.

ـ نعم؟

ـ أقصد بأية عين سيرى العالم، بعد أن ينتهي كلُّ شئ ويعود القناصون

إلى منازلهم، ليس جميعهم بالطبع، لكنه سيعود مع من يعودون منهم، يرمي ملابسه القذرة وقد أثقلتها رائحة العرق والتراب والبارود، ويلبس أخرى نظيفة، بعد أن يكون قد وقف تحت الدش وأحسَّ الماء على جسمه رائقاً، منعشاً ولذيذاً، ورائحة الصابون تملأ أنفه وتمحو كلَّ ما عداها، وزاوله لوهلة شعور الانهاك الذي لازمه لوقت طويل، كأنما أزاحه الصابونِ عن جلده فسال مع مجرى الماء، ثم يتمدد على سريره، يمرّ وقت يفكر خلاله بسنواته الطويلة العابرة، ويسمع أصواتاً خاطفة تخدش الصمت من حوله، ينام بعدها حتى يشبع، تعاوده في نومه كثير من الوجوه التي رآها من قبل، يشاهد من سقطوا يسقطون مرّة أخرى ويسمع أصواتهم، ويظل على هذا الحال يتقلّب بين الوجوه والأصوات حتى يصدّق أن كلَّ شئ قد انتهى وأنه الآن في منزله، وأن الوجوه تأتي وتروح. هل سيفتح عينه غير المستعملة فيرى الناس والطيور والأشجار كما يراها الآخرون، أو يتركها مغمضة ويواصل النظر بعينه الأخرى، المستعملة، فيرى الأشياء كما كان يراها عبر العدسة؟

ـ لكنه لن يحيا إلا بهما، مثل كلِّ البشر، هل رأيت أحداً من قبل يُغمض عيناً ويعيش بعين؟

ـ مع صاحبنا الأمر مختلف، صدّقني، مختلف تماماً، إنه لا يفعل ذلك بدافع من مزاج أو رغبة عابرة، لقد عاش سنوات بعين واحدة، تصوّر، رأى الأشياء تتغيّر كلَّ يوم في أي مكان يكون فيه، قرّب الكثير منها، وضعها في عين العدسة، عند نقطة التهديف، وأطلق الرصاص. كان يلهو أحياناً فيُطلق على النوافذ المغلقة، والأشجار البعيدة والطيور، ويفرح كثيراً باللعب مع حيوانات الرمال الحذرة، لم تكن تفكر أبداً

أن عيناً تترصدها عبر ناظور بندقية، تتابعها بهدوء وهي تدخل الدائرة وتقترب من نقطة التهديف، إلا في اللحظة التي يضغط فيها على الزناد ويراها تتقلّب على الرمال.

## الملوك، أيضاً، يموتون

## (١)

كان وقتها في الصف الخامس الابتدائي، ضئيلاً إذا ما قيس بأقرانه، ولم تكن أسنانه اللبنية قد سقطت جميعها عندما رأى لأول مرّة صورة قناع بشري. على جدار قليل النور بين خزانتين قديمتين، واسعتين ومتربتين، في مكتبة المدرسة، كانت صورة مزججة بإطار خشب رفيع بُنّي اللون، بحجم ورقة كتاب مدرسي. اقترب منها كما لو كان يحلم، كان اسم صاحب القناع مطبوعاً تحته، حروفه رفيعة خفيفة السواد، شبّ على أصابع قدميه وقرأ. عاد من المكتبة ليسأل أكثر من معلّم عن الصورة، سأل بعد كلّ درس ولم يكن أحد منهم قد رآها من قبل، لم يعرفوا من أين جاءت للمكتبة، ومن علّقها على الجدار. بعضهم يتفاجأ بالسؤال، ويردد كأنما ليتأكد مما سمع:

ـ صورة قناع في المكتبة؟

كاد يتوقف عن السؤال واثقاً أن أحداً لم يرها قبله حتى أخبره معلّم الجغرافيا أنه رآها ذات يوم عندما كان في مثل سنّه، ربما أكبر بقليل، منشورة في مجلة أو كتاب، وكان الاسم مطبوعاً تحتها أيضا، لم تكن واضحة بما فيه الكفاية، لكنها بقيت في ذهنه طويلاً، يفكر بها في كل وقت، ثم حدّثه عن الملوك الذين لا يرتدون الأقنعة في حياتهم، إنهم يُحبّون أن تظل وجوههم فتيةً، لا تكبر ولا تشيخ، حتى إذا أغمضوا عيونهم وماتوا صُنعت لهم أقنعة وهم لا يشعرون.

صمت قليلاً ثم أضاف، كما لو كان يحدّث نفسه:
ـ يرى الناس أقنعتهم في المتاحف أو في المجلات والكتب، ليتأكدوا أن الملوك أيضاً يموتون.

## (٢)

ينزل من غرفته في الليل لغرفة جدّه، يدفع الباب ويدخل غابة الأصوات الكثيفة المتشابكة، شخير الجد يتواصل على وتيرة واحدة، كأنه يشخر في خط طويل، ومن حوله يتصاعد ضجيج أجهزة الراديو المنثورة في الغرفة، كان الجد يعيش في الغابة منذ كلّت عيناه. يوقد الضوء ويطفيء الأجهزة، جهازاً بعد آخر، ما تصلها يده منها، يرفع الغطاء برفق فيفزّ الجد وينظر نحوه محمرّ العينين، يحدّق إلى وجهه كأنه يراه، ثم يُعيد رأسه على الوسادة، يسحب نفساً عميقاً ويفتح يديه. يوجعه أن يراه على هذه الصورة كلما اشتاق له وفكّر به: عينان محمرّتان، لا تريان، ويدان مفتوحتان، واهنتان، بان عظمهما. ذلك ما سيظل يراه سنين طويلة بعد أن يُغمض جده عينيه، ويخبو الوشيش من حوله، ويموت. يتمدّد إلى جانبه وهو يسمع صوت تنفّسه يتداخل مع أصوات الجهازين الموضوعين على دولاب الملابس، لم تصلهما يداه. كان صوت معلّم الجغرافيا يتردد في ذهنه، كأنه أشعل الموقد ونفخ على النار بحديثه عن ملوك يموتون، وأقنعة تحكي، وأناس ينظرون.

## (٣)

لم تكن الجملة الأخيرة صادقة على الرغم من دقّتها، وهي تقرّب المعلّم من النار التي اتقدت في ذهن الصبي كما اتقدت في ذهن معلّمه من قبل، تجعله يسحب نفساً وينفخ عليها. إنها تتلاعب بالحوادث، تغيّر ترتيبها، فما قاد الصبي إلى غرفة جدّه هو خوفه مما رأى، وما رآه أعاد على مسامعه الجملة التي لم تكن قيلت إلا على صورة القناع، لأن ما عرفه، بعدها، ظل مستوراً في نفسه حتى اللحظة التي دخل فيها الغرفة واستلقى بين يدي جدّه. لم يكشف سره لأحد في المدرسة، ولا حتى لمعلّم الجغرافيا، لأنه لم يكن يملك ما يكفي من الجرأة ليحدّث عنه أصحابه أو يسأل معلميه، ولأنه، وهذا هو الأهم، كان يُحسّه سرّه، ملكه وخاصته، وما عليه سوى كتمانه والمحافظة عليه.

## (٤)

لم يفارق المكتبة منذ اكتشف صورة قناع الملك فيصل الأول على الجدار. كان القناع يناديه من خلف الزجاج، يتلاعب في ذهنه مثل ستارة تحرّكها الريح، تلتمع مع كلّ حركة وتضيء، يسمع نداءه ويُقلقه، كلما عاود النظر إليه، أنه لم يكن يشبه وجوه الناس كثيراً. يصعد السلّم

كلَّ يوم تقريباً، مع أي درس شاغر يصادفه، ينطلق أصحابه في الساحة ويتوجّه هو إلى المكتبة، ولما عثر في المكتبة على مجلة قديمة مصفرّة الأوراق، تصفّح أعدادها وتنفس رائحتها وأحسّ بنفسه كما لو كان ينزل إلى سرداب عميق عدداً بعد آخر، وفي السرداب رأى صورة الملك داخل إعلان سكائر لوكس، صنع شركة الدخان الشرقية المحدودة، بعقاله المقصّبِ، ولحيته، وعباءته، عيناه صافيتان تنظران إلى الجانب، تلتمع في كلٍّ منهما نقطة ضوء، تأكد أن الأقنعة لا تشبه أصحابها، حتى لو كانوا ملوكاً.

## (٥)

كلما اشتاق لجدّه تداخلت في ذهنه الأصوات، أصوات غريبة متقاطعة، موسيقى ووشوشات، إشارات بعيدة ونداءات غير مفهومة، ورآه مستلقياً على سريره، مفتوح اليدين، بفانيلته القطنية المبقّعة مأكولة الحواف. إنه أشهر مصلحي الراديو في المعقل، بدكانه شبه المعتم، المطلِّ على النهر. كان يواصل الرحلة معه من البيت إلى الدكان صباح كل يوم من أيام العطلة الصيفية، مروراً بمقهى الحاج خليل الذي يكون خالياً في هذا الوقت من النهار، يراه نظيفاً مرشوش الأرضيّة، ويتنفس رائحة شاي جديد. يعبران جسر الخشب العتيق، من فتحات ألواحه يرى الماء خفيف الزرقة، متدفقاً. يجلس أمام الدكان، على الدكة الإسمنت تحت

شجرة البمبر العالية، رائحتها خضراء فاغمة، يُحسّها اسفنجيّة مثل ملمس أوراقها، مترقباً النداء يأتيه في أية لحظة ليرفع جهازاً عن المنضدة، أو يناول مفكاً دقيقاً، أو لفّة أسلاك نحاس رفيعة عارية. كان الجد يعرف مكان كلّ شيئ في دكانه الضيّق الشبيه بسوق الهرج، يكفي أن يدسَّ يده تحت كومة من بقايا الأجهزة ليسحب ما يريد، ماكنة لحام رفيعة مثل قلم الحبر، أو نابضاً دقيقاً معوجّاً، كانت يده تُبصر الأشياء بعد أن كلّ بصره وأخذ العالم يغيم أمام عينيه. في ظهيرات الصيف يسمع الصبي شخير جدّه بين ضربات ريشات المروحة بعد الغداء مباشرة، وفور انقطاع الشخير يعرف أنه عاد إلى العمل. عند الخامسة عصراً، قبلها بقليل أو بعدها بقليل، يعود بجدّه إلى المنزل، اليد الخشنة التي تُبصر الأشياء تحطّ مثل طائر على كتفه، تكون لها في تلك الساعة رائحة برادة حديد و ملمس أسلاك نحاس. يتقدم جدّه بخطوة أو خطوتين، يعبران جسر الخشب، مازال ماؤه متدفقاً وقد تغيّرت زرقته، إنه الآن أكثر كثافة، يراه من بين الفتحات ويفكّر بالماء الذي يتحوّل حبراً في الليل. يسأل عن الجسر، عن ألواحه الخشب، وعن الماء الذي يجري، يسمعه جدّه ولا يُجيب. يتوقفان قليلاً في المقهى، يُسلّم الجد على بعض الجلوس، يحييهم بأسمائهم ويسأل عن الأحوال، ومع استكان الشاي يبدأ بمناقرة الحاج خليل، يسأله عن راديو المقهى وما يأتي به من أخبار، من مكانه خلف منضدة المعدن يردُّ الحاج بأن كلّ شيئ على حاله إلا الراديو، ثم يرفع صوته ويقول: منذ أصلحته يا أخي وهو لا يبثُّ غير أخبار الحروب، كأنه راديو وزارة الدفاع!

بعد عودتهما إلى المنزل بوقت قصير يأكلان عشاءهما معاً، عندها يبدأ

الجد بالحديث عن راديو المقهى الذي أصلحه أربع مرّات بلا مقابل وما زال الحاج خليل يشكو أنه لا يأتيه بغير أخبار الحروب، حاج لعوب، وعن الجسر، والنهر، لم يكن لونه يتغيّر أبداً، كنا نشرب منه، ونسبح فيه ونصطاد، كان أوسع مما هو عليه الآن، كأنه شاخ هو الآخر، ضاق مجراه وتبدّل ماؤه. يتوجّه بعدها إلى غرفته التي تضجّ مثل دكانه بأجهزة الراديو، على المنضدة الصغيرة جوار السرير، أسفل الشُبّاك، وعلى دولاب الملابس، أجهزة من كلّ شكل ونوع، يشغّلها جميعاً ويستلقي على سريره، أصوات غريبة تتقاطع من حوله، وموسيقى بعيدة ووشوشاتٍ، تمتليء بها الغرفة وتفيض، إنها الجنّة التي يعود إليها بعد رحلة كلّ يوم.

## (٦)

في تلك الليلة حكى لجدّه، بصوت يغيّبه وشيش جهازي الراديو، عن الملوك الذين لا يشبهون أقنعة موتهم، وعن الوجوه التي لا تكبر ولا تشيخ. كان الجد ينزل في مياه النوم كما نزل إلى النهر يوماً، يسبح ويصطاد، وهو يواصل حديثه من دون أن يسمعه أحد.

## حِيَلٌ صغيرة

## (١)

# ساعات سويسرية وخيّاطات سمراوات

أكبر أعمامي كان رجلاً مزواجاً، في كلِّ بلد له زوجة، ومن كل زوجة له بنات وبنون. في ستينيات القرن الماضي، وكان ما يزال يسكن البصرة، كان يملك معمل خياطة في سوق حنّا الشيخ، مكائنه لا تُعدّ ولا تُحصى، في الطبقة الثانية من السوق حيث ما زال الخياطون يشتغلون حتى اليوم. لم يكن أبي يُحب زيارة المعمل، أواصل رجاءه كلما ذهبنا إلى العشار وهو يؤجل الزيارة في كلِّ مرّة إلى المرّة القادمة، ولم تأت المرّة القادمة إلا بعد أن يتقطّع صوتي وتدمع عيناي. يتركني أعيش سعادتي، أصعد أمامه على سُلّم البناية المعتم بدرجاته العالية، أرفع قدمي كما لو كنت أقفز مأخوذاً بأصوات الماكنات وأسبقه، كلَّ مرّة، إلى الباب. أدخل قبله الى المعمل الواسع، وأنتظره قليلاً لنجلس على كرسيين متقابلين أمام مكتب خشب على سطحه سجلات قليلة وأضابير، نوافذ المعمل الكبيرة مفتوحة، تُدخل ضوء النهار القوي. تتوزع الماكنات أمامنا في ثلاثة صفوف يفصل بين كل منها ممر، خلف كل ماكنة خيّاطةٌ واحدةٌ، ونساءٌ يمشين بين الممرات، يحملن أقمشة زاهية ويواصلن حديثاً لا ينقطع. من آخر المعمل يهتف عمّي مُرحِّباً وهو يتوجّه نحونا بخطوات سريعة، نظارته الفضيّة تلمع في

الضوء. يسعدني أن أراه في تلك اللحظة حليق الشارب، شعره شديد السواد، مصفوف بعناية، يخطو بين نساء المعمل ببدلته المكويّة وربطة عنقه الرفيعة.

شغلتني الصورة المعلّقة خلف المكتب منذ أول زيارة، صبي بزي عسكري، سدارة مائلة وربطة عنق وأزرار معدنية وأحزمة وشرائط، يُمسك بيديه عصا خشب سوداء، بنطلونه مكوي وحذاؤه مفتوح بان منه جوربان أبيضان. استغربت أن يقول عمّي أنه الملك، فيصل الثاني، ثم يسألني إن كانت الصورة أعجبتني. يُدهشني أن يكون الملوك صبياناً وأن يرتدوا بدلات عسكرية كاملة. يظل أبي صامتاً طوال الزيارة، وإن تحدّث فكلمات قليلة، إجابات موجزة و مجاملات شحيحة تبتلعها ضجة الماكنات، تظل عيناه معلقتين بالعاملات كأنه يتفحّصهن واحدة بعد أخرى. خيّاطة واحدة من خيّاطات العشار، فاتنة في منتصف العمر، كانت كافية لتغلق أبواب المعمل وتوقف مكائنه. في بغداد، وقد انتقل إليها مع بداية السبعينيات، بعد أن هجر حنّا الشيخ وضاقت به البصرة، كان يملك معارض فرج للساعات السويسرية، سيتزن وأولما ونيفادا، في مدخل شارع السعدون، من جهة الجسر، نجح عمله أول الأمر وافتتح فرعين لمعرضه في جمعيتي الطيران والسككك، بعدها أخذ يسافر، سافر كثيراً، وتركِ المعارض بساعاتها وفروعها وموظفيها بيد وكيله الأرمني. كنت أفكر به كلما ذهبت إلى العشار، بسُلّم البناية، والنسوة، وضجّة الماكنات. بعد عشر سنوات، أقل أو أكثر، رأيته ينظر من خلال واجهة المعارض الزجاجية، كان التلفزيون يقدّم برنامجاً عن شوارع بغداد، اقتربت الكاميرا وهي تستعرض الشارع، رفع رأسه من

بين الساعات المعروضة كأنه ينظر لي عبر الشاشة. واجهتني عيناه وهما تعيدان سؤاله القديم:

ـ هل أعجبتك الصورة؟

سيدة أرمنيّة ممتلئة من البتاويين، فاتنة في منتصف العمر، لبقة وقصيرة، بضحكتها الرنانة، هكذا تقول الحكاية، كانت كافية لتغلق أبواب المعارض وتوقف جميع الساعات.

غير خيّاطة حنّا الشيخ، وأرمنية البتاويين، يتحدّث عمّي في أوقات النشوة، بعد أن أقعده المرض وعاد وحيداً إلى البصرة، عن نساء عديدات: فاطيما، من اسطنبول، وماري، من لندن، وصوفيا، ذات الشعر الأصفر والطول الفارع، إحداهن كانت راقصة باليه، وأخرى بائعة في متجر قرب الهايد بارك. يدفع رأسه إلى الوراء، أرى جلد رقبته المتغضن وأسمعه يتحدث عنهن، كان يتسلطن. يصمت قليلاً وتلتمع عيناه، في أوقات النشوة، ثم ينادي بأسماء ملوك وأميرات، فيأتي إليه كثير من الأبناء.

## (٢)

# جندي القوّة البحريّة

أحد أبناء عمّي كان اسمه على اسم جدّي، كان ذلك يمنحني شعوراً لم أحكِ عنه من قبل: أن لي جدين، أحدهما ميّت منذ زمن بعيد، صورته في الجنسية القديمة بُنيّة ومعتمة، وآخر شاب، طويل القامة، بسن فضيّة، ووشم أفعى دقيقة على ذراعه اليمنى، وحِيَلٍ لاتنتهي، كان معظمها يمرّ بسلام، وقليل منها يودي إلى السجن بينَ وقت وآخر. ولأنه يحتال كثيراً من أجل سرقة بعض الدنانير من على ثلاجة المنزل، أو قطعة ذهب صغيرة منسيّة على طاولة التلفزيون أو منضدة الزينة، فإنه لم يكن من المُرحّب بهم من أبناء العم.

أحياناً كان يأتي ببدلّة عسكريّة، إنه الآن جندي في القوّة البحريّة، ببريّته حائلة اللون، مكرّمشة، وثيابه مهلهلة. كان أقرب إلى عامل بناء منه إلى جندي في القوة البحريّة. لطالما رأينا جنود القوّة أنيقين، بثياب نظيفة بيضاء، وخطوط ذهبيّة وعلامات على الكتفين والمعصمين. تلك واحدة من حِيَله، هكذا كان يتحدّث الجميع، لكنني كنت أعرف أنه صادق هذه المرّة، فقد ذهبت على درّاجتي لزيارته في سجن القوّة، سألني عن أبي وأمي وأخوتي، ثم حدّثني عن الجيش: إنهم لا يتسامحون حتى مع الحِيَل الصغيرة. عند انتهاء الزيارة أعطيته

علبة سكائر اشتريتها منذ أيام وخبأتها في دولاب الثياب. أخذها مبتسماً، وكانت سنّه تلمع. كم تمنيت، في طريق العودة، لو حدّثته عن اسمه وما يمنحني من شعور، جدٌّ ميّت وآخرُ شاب، سجين في القوّة البحريّة.

بعد السجن لم نعد نرى عبّاس، ولم يعد يتذكّره أحدٌ أو يتحدّث عن حِيَله. الدنانير القليلة بقيت في مكانها على الثلاجة، وقطع الذهب الصغيرة كما هي على طاولة التلفزيون أو منضدة الزينة.

أخبار متباعدة عن نقله إلى سجن الدفاع في بغداد، أخبار متباعدة أخرى عن محكمة وقرارات. بعد زيارتي لسجن القوّة البحريّة أصبح لي جدّان: واحدٌ ميّت منذ زمن بعيد، وآخرُ شاب، وشم أفعى دقيقة على ذراعه اليمنى، ميّت أيضاً. في الجيش لا يتسامحون، حتى مع الحِيَل الصغيرة.

## حكاية عوّاد

من بين العاملين في سينما نادي الميناء، مشغّلي مكائن، وقاطعي بطاقات، ومنظفين، وحَمَلة مصابيح، كان عوّاد الوحيد الذي أطلب منه، كلما جئت إلى السينما، ملصقاً من ملصقات الأفلام، أيَّ ملصق، مهما كان ممزقاً وقديماً. كانت الملصقات حلما بعيداً من أحلام صبانا، لم يُنقص من بهجتها أنها لا تعلّق إلا أياماً تُعلن خلالها عن فلم الأسبوع، ولم يكن تكسّر حوافها، وتخرّم أوراقها المقواة ، وحشد الثقوب، ما تتركه المسامير على جلدها، ليقلل من غرامي بها، لكن عوّاد لم يكن يعبأ بي، كان يواصل عمله في إبطال البطاقات بشقها شقاً قصيراً حاسماً ورميها في سلّة المهملات، يلتفت نحوي وأنا أعيد الطلب بصوت متقطع، منخفض وحزين، ليصدّني كما في كلِّ مرّة: ممنوع، لكلِ فلم ملصقاته المحسوبة، لا تزيد ولا تنقص.

كنت أحفظ جوابه عن ظهر قلب كما يحفظه غيري من أبناء المعقل، لكننا لا نكلُّ عن المحاولة كلما ذهبنا إلى السينما. ما يدعونا لمعاودة الطلب هو ما يُحكى عن كنز الملصقات الذي يملكه، ملصقات من

كلٍّ حجم ونوع، عربية وأجنبية، تغطي جدران غرفته وتصعد إلى السقف، غرفة عجيبة ساحرة لا تشبهها أية غرفة في دور عمّال الميناء، إنها غرفة أحلامنا.

سنوات طويلة ونحن نكرّر محاولاتنا وعوّاد على حاله، يقطع البطاقات ولا يلتفت، حتى إذا انكسرت قلوبنا عاد لصدّنا بكلماته المحسوبة مثل ملصقات الأفلام، لا تزيد ولا تنقص. غدت سعادتنا أن نسأل وأن نُصدّ وأن نستعيد الحكاية، حكاية عوّاد وغرفته، نضيف لها ملصقاً مع كل فلم جديد.

مع السنوات الأولى من الحرب العراقية الايرانية غادرنا البصرة مع كثير من العوائل، كان القصف قد وصل إلى المعقل، قذيقة هنا وأخرى هناك، ومثل كل هجرات الحروب، لم يقاوم البعض البعد عن المدينة فعاد مع تراجع القصف، وفضّل آخرون البقاء. كنّا من العوائل التي فضّلت البقاء، سبع سنوات أو أكثر قضيناها في مدينة الديوانية، أغلقت السينما خلالها أبوابها ولم تعاود فتحها حتى اليوم. كنت أسأل من أصادفه من أصدقاء الدراسة، عشاق الأفلام والملصقات، عن عوّاد، ولم يكن أيٌّ منهم يعرف عنه شيئاً. كأنه أغلق على نفسه باب غرفته مع انطفاء الضوء عن الشاشة وغاب مع ملصقاته، حلماً بعيداً من أحلامها، لكن صورته لم تغب عن ذهني، كنت أتخيّل خاتمة أخرى غير النسيان تليق بحكايته:

لم يسكتنا عن طلب الملصقات غير غيابه المفاجئ عن السينما، حكايات جديدة أخذت تدور، خيالية هي الأخرى، في ختامها يُعثر عليه مطعوناً في مخزن السينما، ممدّداً بين علب الأفلام. بعد موته بأسابيع أذهلنا

## حامل المظلّة

المشهد، أمواج من ملصقات ممزّقة تملأ الشارع قريباً من السينما، كأنها خُلعت عن جدار بعد لصق طويل، تدفعها الريح فتتقلّب مئات الوجوه المقطوعة، شادية وهند رستم وفاتن حمامة وأودري هيبورن، رشدي أباظة وانتوني كوين وكلينت ايستوود، وجوه طالما عاشت في أحلامنا، لكننا لم نر، من بينها جميعاً، غير وجه عوّاد، يتقلّب على كل ملصَق.

أروي الخاتمة لمن اصادفه من أصدقائي القدامى، القليل منهم يبتسمون غير مصدقين، وكثيرون يصمتون، تلتمع عيونهم وهم يتذكرون عوّاد، رجل البطاقات والملصقات.

## السكّين

لم تكن هيأة حسن بجسده النحيف وقامته القصيرة تدعو من يرا
للتفكير بسوق اللحم، من الصعب تصوّره واقفاً في دكانه بين الذبائح
المعلّقة، تلوّث قميصه الدماء، من حوله لحوم خراف مفتوحة الصدور
وأبقار عظيمة وجواميس، ذيولها ما تزال متصلة بعجيزاتها، وقد دسّ
سكينه الطويلة الباشطة في غمدها الجلد المتدلي من حزام عريض
مساميره فضيّة لامعة.

أشياء كثيرة غير اللحم تأخذني إليه في أوقات متباعدة، أقف أما
دكانه، بين ضجة عمّاله وهم يحملون الذبائح، ذيولها تتلاعب على
أكتافهم. أعدّل وضع نظارتي بانتظار أن يلتفت نحوي، القصاب النحيف
أشيب الشعر يعود فور رؤيتي إلى المدرسة المتوسطة بحكاياتها التي
يُعيد الخيال روايتها، للسفرات المدرسيّة ومعسكرات الكشافة ـ منذ
الصف الأول كنا معاً في فرقة الكشافة ـ أسأله عن أحد أصدقائنا في
الفرقة، صديق يتراءى لي مثل شبح بعيد، لا اسم له ولا ملامح، أحاول
استعادته بصعوبة، يصمت قليلاً وقد ضيّق عينيه، ثم يقترب مسنداً

ذراعيه إلى الحاجز الزجاجي في واجهة الدكان و يندفع بالحديث عنه كأنه يتذكر كلّ شيئ دفعة واحدة. تسحرني ذاكرته وتُدهشني أحاديثه كأنني أسمعها لأول مرّة، كما لو لم أكن شاهداً من شهودها أو شريكاً فيها. الحكاية الوحيدة التي لم نتحدث عنها هي حكاية السكّين، كأننا اتفقنا على نسيانها، أو كأنها لم تحدث يوماً.

طالما أحببت أن أحمل عدّة الكشافة كاملة، السكّين والصافرة والحبل وزمزمية الماء بلون معدنها الأخضر القاتم وقد بقيت لدي طويلاً، وحدها من بين الأشياء الأخرى. كنت أحمل سكيناً معقوفة عاجيّة الذراع، شهق حسن فور رؤيتها، أتذكّره الآن يلمس حافتها، يقرّبها من عينيه ويتأمل نقش التنين على صفحتها الصقيلة اللامعة، كاد أن يُغمى عليه وهو يحرّكها في الضوء. مع أنفاسه المتلاحقة عرفت بأنني لن أعود بعدّة كاملة، وأن السكّين لم تكن إلا سكّينه وقد ضلّت طريقها وحطّت بين يدي. كلما استعدت الحكاية مع نفسي عاودني الاحساس بأن حسن رأى حكايته على صفحة السكين، وها هو يعيشها اليوم كما رآها.

عند مشهد عيني حسن وهما تحدّقان بمجرى حياته على صفحة المعدن الصقيل يمكن أن تنتهي الحكاية كما أنتهت حكايات كثيرة من قبل لكنه لم يكن يحدّق بمصيره، كان ثمة مصير آخر يتراءى له على مرآة المعدن، ووجه آخر غير وجهه يغيّر الخوف ملامحه، رأيت يده ترتجف وسمعت صوت تنفسه واستغربت أن يكون نقش التنين قد أخافه إلى هذه الدرجة، أعاد السكّين إلي وسار صامتاً. كان لحسن أخ أصغر منه اسمه ابراهيم، يشبهه في قصر القامة ونحافة الجسد،

التحق بالمتوسطة بعدنا، سريعاً ما أصبح نجم المدرسة بامتياز فقد كان أفضل لاعب كرة قدم بين لاعبي متوسطات المعقل وهو الوحيد الذي كان بإمكانه اللعب على ساحة ملعب حقيقي والتنعم برؤية نجوم فريق الميناء الذين طالما سحرتنا رؤيتهم عبر شاشة التلفزيون، فقد كان يلعب ضمن أشبال الفريق، وفي السنة التي حاز فيها الميناء لقب الدوري، وهي المرّة الوحيدة في تاريخه، لم يجد الطلاب غيره يرفعونه على أكتافهم ويدورون به في الساحة وهم يهتفون. أكاد أجزم كلما استعدت الحكاية بأن حسن لم يكن قد رأى غير الصورة الأخيرة لأخيه على المعدن الصقيل فبعد أكثر من ثلاثين عاماً على حادثة السكين وجد ابراهيم مرمياً على ضفة شط العرب، بين سفن الداكير القديمة المعطّلة وقد طُعن أكثر من عشر طعنات، كان وقتها يعمل محاسباً في بلدية البصرة بعد أن أخذته ريح المصير بعيداً عن ملاعب كرة القدم كما أخذتنا جميعاً بعيداً عن أحلامنا. سأسمع العديد من الأصدقاء القدامى كلما التقيت أحداً منهم يحدثونني عن نجم المتوسطة الذي قُتل في فاتحة مهرجان القتل في المدينة، لكنني سأصمت مع كل حديث عنه، فلم يكن موته بالنسبة لي غير ملمح أخير، كامل ونهائي، لصورة رآها حسن ذات يوم على صفحة سكين.

## مصباح صغير

## (١)

# الحديقة القديمة

ينام، في العادة، في غرفة المكتبة، وهي عادة ليست بالقديمة الراسخة، فلم تكن عنده غرفة مكتبة قبل ستة أشهر، إنما كانت المكتبة تنام معه حيث ينام، وتأكل حيث يأكل، ولم يكن ذلك غريباً عليه فقد تنفست حياته في غرفة متوسطة في بيت أهله في المعقل القديم، ترتفع خزانة الكتب فيها إلى جانب خزانة الملابس، أعلى منها وأوسع، وهما تحيطان بسريره الحديد قصير الأرجل الذي يبدو غارقاً في قاع الغرفة، كان يُحسّه غارقاً بالفعل حينما يستلقي عليه ويرى الكتب تتراصف على يمينه في ثبات، عناوينها لا تبين، حتى تبدأ حركتها في ضوء النافذة الخفيف فيُغمض عينيه ويُسلم نفسه للنوم، في نومه يعرف أنها أمامه، تنتظر أن ينهض ليخطو في رائحة النبات التي تملأ الغرفة كل صباح، يفتح الشبّاك ويرى من خلال سلك المعدن الصدئ شجرة البمبر القريبة عالية، عريضة الأوراق.

إذا كانت الحياة تُقاس بالغرف، فهذه الغرفة ـ بلا شك ـ غرفة حياته، وإذا كانت الحياة تُقاس بالأشجار، فهذه الشجرة شجرة حياته، معها عاش الرائحة وهي تمرّ من نهار إلى نهار، وتعبر مثل خيط واهن شفيف من فصل إلى فصل. وفي الغرفة تذوّق طعوماً لا تُعدّ، بقيت لِذاذاتها

على لسانه، حتى اجتمعت مع الوقت في لذة وحيدة حارقة.
مع انتقاله من البيت بدأ يفتقد الطعم، يشتاق لحرقته، ويعلم أنه لم يكن طعماً عابراً يمكن أن يتلاشى أو يذوب؛ يُطلُّ من نافذة شقته في الطابق الثالث، يرى الزوارق البعيدة على النهر تعلو وتهبط مثل أعواد من القش، ويفكر باللحظة التي غاب الطعم فيها.
في تلك الأيام خطفت في ذهنه فكرة مع أصوات الصيادين التي كانت تصله متقطعة واهية: ليس الإنسان ذاكرة أو رغبة أو حلماً، إنما هو طعم يتكثف بعد أن تنكسر الذاكرة وتخبو الرغبة وينطفئ الحلم، طعم خالص له وحده ولا يُدركه سواه.
قبل أشهر انتقل من الشقة ليسكن في منزل قرب شركة نفط الجنوب، فيه حديقة جانبية متربة بشجرة سدر متشابكة الأغصان، تجوّل مع زوجته في المنزل الفارغ، جلسا في المطبخ وصعدا السُلّم، ودخلا إلى الغرف، فتحا باب السطح وتمشيا، كان واسعاً بلاطاته اسمنتية عريضة متربة، سبقته بخطوات وهي تواصل حديثها عنه كما لو كانت تعرفه وقد عاشت فيه من قبل، تفتح الأبواب وتسحب النوافذ، تتفحصها عن قرب وهي تتحدّث فيما ظل هو صامتاً، قادته الغرف، غرفة بعد غرفة، للشعور بالضيق، التقطت زوجته شعوره فانحرفت بحديثها لمحاسن الغرف الضيّقة، حدّثته بما لم يكن يعرف من محاسن الشتاء ومحاسن الصيف، غرف يكفي كلاً منها مصباح واحد صغير لتصير عربة قطار، نظيفة مرتبة.
كانت هي من اقترح أن تكون للمكتبة غرفة منفردة تتنفس الكتب فيها بعيداً عن روائح النوم أو روائح الطعام، في تلك اللحظة، مع حديثها

عن العربة النظيفة والروائح التي تلوث الكتب، قرر أن يعود للنوم في غرفة المكتبة.
كانت تواصل حديثها وكان يُنصت لها، هزّ رأسه وهو يرى عينيها تلتمعان ووافق على الانتقال، ليس من أجل المحاسن التي لم يكن يعرفها، ولا من أجل الغرف التي تتبدّل في رمشة عين، مصباح واحد صغير وتتحوّل من حال إلى حال، كان يفكر بالحديقة القديمة وبشجرتها العالية، متسائلاً عن الطعم، الطعم الذي لم يفتقده أحد سواه.

## (٢)

# سمع الصوت

كان ابنه قد ترك إلى جانبه، على الأرض المفروشة حيث يتمدّد إلى جوار خزانة الكتب، ورقته البيضاء المنشورة بعد طي، ظل ينظر لحيواناتها وهي تمضي في فضاء فسيح تتخلله أطيار بعيدة مفرودة الأجنحة، على أرض الورقة زرافة منقّطة لا تشبه الزرافات، وخروف لا يشبه الخراف، كانا يمضيان باتجاه نخلة سعفاتها ممدودة، دقيقة الأوراق، أعلى من الخروف قليلاً وأدنى من رأس الزرافة، رأى أفعى تزحف على أرض الورقة وأخذته أقدام الزرافة الرفيعة المدببة لما قرأ في كتاب عن رجال يجلسون على أسياخ، أقدامهم مثنية وأكفهم

مفتوحة، وعلى ملامحهم انطباع الأمان العميق.
ـ هل كانوا يُصلّون؟
كان يسأل نفسه في كل مرَّة يتذكرهم فيها.
لم يحدّثه الكتاب عن صلاة أو ترتيل، لم يحدّثه عن الشفاه التي تظل مطبقة حتى آخر الذكرى لكن صوتاً ما يُخبره، كما في كل مرّة، أن رجلاً منهم سيفتح عينيه، فيذهله احمرارهما، يُثقل قلبه وهو يفكر بألم الأقدام المثنية، ويأخذه من الورقة المتروكة إلى جانبه لصوت المرأة الذي سمعه ذات نهار.
بعد أيام من انتقاله للسكن في المنزل سمع الصوت، صوتاً حزيناً موهناً، له لون ورائحة وطعم، مرّة واحدة سمعه فيها، ظل يترقبه نهاراً بعد نهار ولم يتكرّر أبداً، لكنه كان يتراءى له في لحظات متباعدة وفي أماكن لا يتصوّر أن بإمكان صوت عابر أن يعود فيها، في زحمة سوق، أو اندفاعة باص، أو جلسة مقهى، لحظات خاطفة ينقطع فيها كلُّ شئ من حوله وتغيم عيناه ثم يسمع الصوت، بطيئاً، كما لو كان يصعد من قاع بئر.

# طيطات حول الزمن

## (١)

# القرية

منذ أيام بعيدةٍ تواصلُ الخيولُ اندفاعها على الطريق الصخري بين أشجار السرو العالية قاتمة الخضرة، طريق طويل يضيق ويتّسع، وأشجار تزداد علوّاً وتشابكاً، كلما اقتربنا من القرية نسينا شيئاً مما مرَّ بنا حتى إذا وصلنا لم نعد نتذكّر سوى الألم الذي يعصرُ مفاصلنا، ورائحة الخيول وقد أعماها التعبُ فأخذت تُحمحِمُ وتحرّكُ رؤوسها كأنها تصدمُ الهواء. رحلةٌ طويلةٌ شاقّةٌ لم نصدّق أن بإمكانها أن تنتهي، لكن القريّةَ أمامنا الآن، بيوتها المتفرّقةُ على السفح بهياكلها الخشب تمنحُ من يراها انطباعاً بأنها بُنيتْ على عجلٍ كما لو كانت مساكنَ عمالِ مناجم أو قاطعي أحجار، لكن الطيورَ الكثيرة حولها تبدّدُ مثلَ ذلكَ الانطباع: ديوكٌ هندٍ بأعرافٍ غبيّة حمراء، وطواويسُ كسولةٌ، وببغاواتٌ تحوّلَ السفحَ إلى غابةٍ، وتحوّلُ الغابةَ إلى فكرةٍ أوليّةٍ عن العالم.

ـ كلُ طريق لا بدّ أن ينتهي بقريةٍ على سفح.

قلتُ لصاحبي وسط ضجيج صبية استقبلونا حفاة راكضين، قصيري الأطراف واسعي الجباه يتقافزون من حولنا ويهتفون بكلمات غير مفهومة. أمام منزل سيد القريّة اقترب مني وهو يُمسكُ ألجمةَ الخيول وقال بصوت خفيض:

ـ كلُّ طريق ينتهي بقريةٍ أو غابةٍ أو نهرٍ سوى طريقِ الزمان، إنه لا ينتهي إلا ليبدأ من جديد.
نظرتُ إلى عينيه، لالتماعة النجم البعيد فيهما، ورأيتُ أن من الواجب أن أكتبَ عنه ولو سطراً واحداً في هذا المنعطف من الرحلة، فليس من السهل أن يُهيأ لكلِّ رحّالةٍ صاحبٌ لمّاحٌ مثله، لكنني، ويا للأسف، لم يعد بإمكاني أن أتذكّرَ شيئاً عنه أو عن الرحلة أو عن الخيول التي توقفت عن الحمحمة وانقطعت عن تحريك رؤوسها منشغلة بالعلف والماء.

في الليل عند سيد القرية وعلى ضوء النيران المتّقدة، عرفتُ أننا في فصل عجيب من فصول رحلتنا، الفصل الذي يحدّثنا فيه الرجلُ والنارُ تُضيء ملامحه المنحوتة مثل جذع شجرة صلب، عن اللحظة التي مُحي الزمنُ فيها من القرية، التفتُّ نحو صاحبي لأستوثق مما سمعت فالتقت أعيُنُنا في حيرةٍ وذهول، واصل السيدُ حديثه وقد لاحظ حيرتنا:
ـ نعم، إنها اللحظةُ التي غاب فيها الزمنُ كأن ستاراً عظيماً أُسدل عليه، ومُحيت كلُّ أقسامه ولوازمه، لا ماض ولا حاضر ولا مستقبل في قريتنا، ليس غير لحظةٍ وحيدةٍ واحدةٍ ننامُ على أطرافها ونصحو، لا الصغار يكبرون خلالها، ولا الكبار يشيخون، ليس ثمة ما يشيخ في قريتنا، لا الطيور ولا الأشجار ولا الماشية ولا السحالي ولا الأحجار، لو التفتما أيها السيدان الكريمان ستريان خلفكما عظايةً بحجم الكف تواصلُ النظرَ نحوكما بعينين جاحظتين جمّدهما الفزعُ، هي بالنسبة لكما عظايةٌ

قليلةُ الشأن لن يمرَّ عليها وقتٌ طويلٌ حتى تنسحب مطبقةً أجفانها بثقل، لكنها بالنسبة لنا لن تبرح مكانها يوماً ولن يخفّ فزعُها، على هذه الهيئة خُلقت وعليها ستبقى، لو كان بإمكانها أن تنطقَ لحدّثتْكم بما أحدّثكم به، نحن الزمن وقد ارتأى أن يكون قريةً على سفح.

## (٢)

# العلامة

بعد أيام من التوقف أخذت السفينةُ تمخر النهر مع هبوب رياح المساء، ومع أول النهار سمعنا الأصوات تواصل نداءها، تصوّرناها تصعد من العنبر الواسع أسفل السفينة أو من إحدى حجراتها المقفلة، لكن صيحةً من أحد البحّارة زادت من مخاوفنا، بدت ضرباتُ أقدامه واضحةً وهو ينزل سُلّم الخشب مكرّراً بوتيرة واحدة: ـ إنهم ينادون..

صيحة جليّة بصوت صافٍ، لا أثر فيها لقلقٍ أو خوف.

ـ إننا نقترب من المقبرة..

تبرّع أحد البحّارة بالتوضيح، لفت نظري جلوسه أقصى منضدة الطعام حيث يبدو الضوء أقل سطوعاً، مواصلاً النظر إلى كوب أمامه.

ـ لكل رحلةٍ علامةٌ وعلامةُ هذه الرحلة نداءُ موتاها.

أضاف بصوتٍ خفيضٍ كأنه يحدّث نفسه، غير معني بالصمت الذي

ساد الغرفة، من نبرة صوته الآمنة تصوّرته أكبر البحّارة سنّاً، ولسبب ما شعرتُ بأنني لم أره من قبل لا في السفينة ولا على الساحل. بعدَ أن خفّت حرارة الشمس، وسكنت الريح، وأكملت السفينة رسوها مضينا لزيارة المقبرة استجابة للنداء، يسبقنا حرّاس مدججون بالسلاح، تراءت لنا فور نزولنا على الضفّة مساحةٌ ترابيّة جرداء درست قبورها منذ زمن بعيد. كان الحرّاس يسيرون في طرق ملتوية كأنهم يحفظون أماكن القبور عن ظهر قلب، وكنا نتتبع خطواتهم محاذرين السير فوق القبور.

مضى يومان كاملان منذ خلّفنا المقبرة وراءنا وما زالت السفينة تمخر النهر، تدفعها رياح رطبة تكتم الأنفاس، لم نر خلالهما سوى بيوت طينيّة متفرّقة ينقطع أهلها عن كلِّ عمل لينظروا نحونا، من نافذة الممر الضيّقة أراهم متشابهي الوجوه، نحاف الأجسام، لقاماتهم طول متقارب كما لو كانوا نسخاً متناثرة لرجل واحد، وما أن تغيب البيوت عن الأنظار حتى أعاود البحث، أصعد إلى سطح السفينة، وأسيرِ بين ممراتها الطويلة شبه المعتمة بروائحها الكثيفة، ثم أقترب متمهلاً من غرف البحّارة مفتوحة الأبواب، لعليّ أرى البحّار الذي حدّثنا عن الرحلة وعلامتها.

## (٣)

# السير في العراء

بعد نهار من السير على أرض قاحلة ليس فيها سوى قطع حجارة بنيّة متناثرة تلمع تحت الشمس، بدت أمامهم، في حوالي الغروب، بناية كبيرة من الآجر، لم يصدّقوا أن بإمكانهم الوصول إلى خانٍ للاستراحة والمبيت بعد ما لاقوا من عناء، كانت تلوح أمامهم آثارُ مدنٍ قديمة طوال النهار فيحثّون جيادهم على مواصلة السير كلما استبدّ بهم التعب وتباطأت خطواتها، لكن الآثار لم تكن تقترب رغم سيرهم الطويل. كان الخان واسعاً، تطل حجراته على صحن واسع مرصوف بالطابوق، يتقدّم كلَّ حجرةٍ إيوانٌ صغيرٌ يستريح فيه المسافرون أول الليل، حتى إذا تعالت البرودةُ آووا إلى حجرهم وقد تركوا الخيول في الاصطبل القريب، تصلهم حمحمتها كأنها تواصل السير في الظلام. كانت رائحة غريبة تغطّي المكان، خانقة وغير مفهومة كأنها رائحة أسماك متيبسة، لم يمنحوا الأمرِ كثير عناية فالتعب يظل أقوى من كلِّ رائحة، ونداء الراحة يبدّد كلَّ ظن. دخلوا الحجرة حاملين فوانيسهم، وفي الزاوية البعيدة المظلمة رأوا أشياء مركومة فوق بعضها، تقدموا في النور الواهن وما كادت أيديهم تمتدّ حتى ارتدّت إليهم، لم تكن الأشياء سوى جُثث لُفّت في بُسط قديمة ورُبطت بحبال، وأسجي بعضها بتوابيت

خشب مهلهلة بدت من شقوقها بقايا الجلد المتيبس المسود. خرجوا من فورهم تنفخ الريح أنوار فوانيسهم، تاركين الخان ليكملوا ليلتهم في العراء، وقد عاودوا السير حيث لا يلوح للمدن القديمة أيُّ أثر، بعد أن أجهدهم السير تمددوا صامتين ينظرون نحو السماء الفسيحة وقد توقفت الخيول عن الحمحمة، لكن الرائحة ما زالت تصلهم خفيفة متقطّعة كلما هبّت الريح من جهة الخان.

# الدمية

# حامل المظلّة

كانت العربة شبه فارغة، هكذا هي دائما عندما يركب المترو أول الليل، كتبٌ متروكةٌ في الجيوب الخلفية للكراسي وصحفٌ مطويّة دونما اهتمام. لا بد أنها قُرأت مرّات، كانت تبهت مع كلّ قراءة، أخبارها تُمحى وصورها تذوب. ركّاب متفرّقون، عائدون من عمل، أو ذاهبونٍ إليه. وحده كان يركب على غير هدىً بعد أن يُتعبه المشي، في كلّ مرّة يُحسُّ العالم ضيّقاً من حوله يمشي طويلاً كأنه يُعاند إحساسه، يختبره مع كلّ خطوة، يقطع شوارع مضاءة، يتريث أمام محال مغلقة، يتوقف أحياناً، وينظر عبر أبواب الحديد المشبّكة، خلف الأبواب يرى وجهه على الزجاج ينظر نحوه تحيطه عوالم صامتة بألوان، يمرّ بحدائق فسيحة وغابات، غابات صغيرة على حدود المدينة، ثم يعبر نهراً دفاقاً على جسر خشب ضيّق وطويل، يسمع خطواته على الجسر، وبعد أن تكلّ قدماه يجد نفسه في العربة شبه الفارغة. في كلّ مرّة تأخذه العربة لذكرى لم يكن يتصورها حيةً ما تزال، وها هي تُعيده لواحدة من الحكايات القديمة، حكاية يسمع فيها أخته تتحدّث عن الدمية، كانت

صغيرةً وقتها، لم تتجاوز الخامسة، في الليل تتذكر دُماها، تتحدّث عنها واحدة بعد أخرى، دمية البنت ذات الشعر البني والنظارة السلكية الخالية من العدسات، والأخرى القصيرة السمراء بقبّعتها الصوف المقلّمة، تتحدّث عن سنجابها الرمادي بخرزتي عينيه البُنّيتين، أو الأرنب ذي الفرو الأبيض الناعم والأذن الطويلة السوداء، تتذكرها جميعاً قبل أن تأوي إلى النوم وتأخذ بالبكاء. يسمع أمه تحدّثها عن السنجاب الذي لا بد أن يكون مختبئاً في مكان وفي الصباح ستجده بانتظارها، أوعن الأرنب اللعين، لكن ذلك لم يكن ليرضي الصغيرة فيتعالى بكاؤها حتى ينهض كلٌ مَنْ بالمنزل للبحث في كلّ مكان، بحث يطول دونما جدوى.

كان هو من رآها تحفر حفرة صغيرة في الحديقة، تضع الدمية فيها وتغطيها بالتراب، في الليل نادى أمه فتبعته إلى المطبخ، شبَّ على أصابع قدميه وحدّثها عن الحفرة، فتحت عينيها مندهشة، كانت دهشتها كافية لتؤكد انها لم تكن تصدّقه، حفرة؟ سألت مستنكرة، لكنه رآها من شبّاك الغرفة في النهار تحفر في الحديقة هي الأخرى، ثم تعود وبيدها أكثر من دمية متربة منكسة الرؤوس مثل طيور ميتة.

بعد ذلك بسنوات كانت أخته تضحك كلما استعاد أحدهم الحكاية، قبل أن تعود لسؤالها إن كانت تفعل ذلك حقاً: تبكي في الليل على الدميّة التي تدفنها في النهار. كان بودّه أن يهاتفها في اللحظة التي اندفع المترو فيها في الظلام ليسمع ضحكتها تعلو من جديد مغطية على صوت العجلات العنيف، يفكر إن عليه أن ينتظر وقتاً ليس بالقصير قبل أن يرنّ هاتفها، كأن سهم الاتصال يمضي بطيئاً بين قارتين، سيبدو

## حامل المظلّة

الأمر أغرب من الحكاية نفسها، أن يتصل ليذكّرها بصوت متقطّع تلتهم المسافة كلماته، كلّ مرّة تستغرب الحكاية كأنها حكاية فتاة أخرى ثم تنطلق في ضحكة بعيدة مجلجلة.

## تعديل الخطط

كنا قد أتفقنا على خط سير الرحلة، تفاهمنا على تفاصيل المدن وأماكن السكن ووسائل الانتقال مع الإبقاء على باب التعديل موارباً. ولأنني مثل كثير من البشر أخشى المفاجآت وترتاح نفسي لما هو واضح ومجرّب ومعروف، فلم أطمئن تماماً لباب التعديل الذي ظلّ يواجهني كلما أغمضت عيني في الطائرة المحلّقة بين عبادان وطهران، تدفعه الريح فينفتح أكثر مع كلّ اغفاءة ثم تغلقه بقوّة فاستيقظ هلعاً. لم أكن أحب التعديل المفاجيء للخطط. وبدافع خفي سارت الأمور على ما يرام وتواصلت الرحلة كما خُطط لها، ننتقل بالباص من دولة آباد إلى قلب طهران عبر الشوارع النظيفة الواسعة، ومن قلب طهران إلى عبّاس آباد على طرق جبلية كثيرة الالتفاف، ومنها إلى رامسر في الشمال حيث يلوّح الدلالون ليل نهار بلوحاتهم المعدنية ذات المقابض أمام الباصات وهم يواصلون نداءهم: ڤيلا، ڤيلا، وحيث يرتمي وراءهم البحر واسعاً ورمادياً. لقد نسيت باب التعديل حقاً ونحن نمضي خطوة بعد أخرى على خط السير المتفق عليه، كان يأخذني التعب فأنام من دون أن أرى

شيئاً، عتمة فسيحة وريح، أحياناً تخطف في العتمة شاحنات سريعة ألمح داخل قمراتها المضاءة وجوهاً تريّة تومض وتختفي، وفي النهار أواصل الحديث مع نفسي عن صاحب دكان الموبيليا الذي صادفته في دولة آباد أول أيام الرحلة، كنت مشغولاً بروعة الحروف الفارسية على الواجهات أواصل انتقالي بينها حين صادفتني حروف الرقعة على واجهة موبيليا الجنائن، لم تعن الكلمة لي شيئاً عندما شاهدتها أول مرّة لكن مع عودتي إلى الشقة أخذت تلوح أمامي من جديد. وضعتُ تفاحةً في صحن صغير، قطّعتها على مهل ثم فتحت النافذة ونظرت إلى الشارع الخالي عبر شجرة الصنوبر العالية، صوت الأولاد يصلني من باحة البناية متقطّعاً وبعيداً، ورائحة الصنوبر تملأ المكان. رأيتني أعود إلى شارع الموبيليا، أقف بمواجهة الزجاج أمام الحروف، ومن الدواخل المعتمة يتقدّم نحوي رجل بخطوات ثقيلة، يقف على الجانب الآخر من اللوح، ليس بيننا غير حروف عربية لامعة، ثم ينقر بأصابعه على الزجاج. كان نصف متعة الرحلة ينتظرني مثل وعد حافلٍ في محطة قطار طهران، حيث سنستقل قطار الليل إلى مشهد. كلما فكرت بأنني لم أركب قطاراً منذ عقود أحسست كأنني خلّفت شيئاً عزيزاً ورائي، ثم التفتُ فأراني شاباً أجول بين العربات، أنظر عبر النوافذ الواسعة لأضواء القرى البعيدة ومشاعل الغاز المتلاحقة وأعبر الممرات الضيّقة وسط العربات متأملاً الوجوه وهي تغفو. كان تعديل الخطة بالنسبة لي أكثر من أمر صادم وحزين، لا يمكن تجاوز القطار والسفر إلى مشهد بالباص، لا يمكن ذلك، حدّثت نفسي ثم ذكّرتهم بأننا اتفقنا على السفر بالقطار وحجزنا البطاقات قبل الشروع بالرحلة، حاولت خلال

حديثي أن أسيطر على حزني، ولم أذكر شيئاً عن الشاب الذي يتجوّل بين العربات. قالوا بأن خمس ساعات للعودة من رامسر إلى طهران شيء كثير، يمكننا أن ننطلق بالباص إلى مشهد مباشرة. كان اسماعيل منصوري، سائق الباص، يهزّ رأسه مصدّقاً على حديث لا يفهمه قبل أن يُطلب منه أن يتدخل هو الآخر فانطلق يتحدّث ويلوّح بيده، ينزل من جبل ويمضي في شوارع طويلة متعرّجة ثم يستدير مرّات تواصل يده بعدها اندفاعها. ظلّ يحرّك يده طويلاً حتى تصورت الطريق إلى مشهد ممتداً بلا نهاية. في الصباح التالي حزمنا حقائبنا، تعاونّا على رفعها واحدة بعد أخرى إلى اسماعيل الذي رتّبها على سطح الباص ثم غطّاها بقطعة ثخينة من النايلون وأحكم شدّها قبل أن ننطلق في شوارع رامسر، كان الدلالون على الجانبين يلوّحون وينادون. في الظهيرة توقّفنا للغداء، ومع الغروب اختفت المدينة من حولنا وحلّت بدلاً منها جبال تخترق قممها الغيوم، وفي الليل استبدَّ بنا التعب وأنهكنا الجوع وكان الباص مايزال يواصل السير، عاودني عندها إحساسي القديم وأنا ألتحق بوحدتي العسكريّة، كان العالم يضيق من حولي، وكانت الجبال العالية تُسلمني لليل. ربما سنتوقف بعد ساعات أخرى من السير أمام مطعم على جانب الطريق، يقف على ساحته الترابية صفّ من الشاحنات. في المطعم نرى وجوهاً غريبة تطالعنا بملامحها التترية من دون أن يُخفي أصحابها دهشتهم من مسافري أخر الليل، سنأكل قطعاً من لحم صلبٍ تعوم على سطح مرق خفيف ساخن صُبَّ في طاسات، إلى جانب كلّ طاسة ذراع معدنية قصيرة لامعة، أفهمنا صبي المطعم بإشارة من يده بأنها تُستعمل لهرس اللحم في الطاسة قبل تناوله. ستبقى

الأذرع، رغم الاشارة، ملقية على الجانب، لن يستعملها أيٌّ منا. بعدها نغفو قليلاً في مسجد قريب بانتظار أن نواصل المسير مع الفجر فأسمع الشاحنات تمرّ وأرى الرجل يتقدّم نحوي من جديد، يقف بمواجهتي ثم ينقر على الزجاج.

## رجل وببغاوان

كأن البصرة كانت تترقّب لحظة الافتتاح طوال أربعين عاماً، عربات جيش تُحيط بالخيمة، سيارات شرطة ورجال مرور، وأناس يتوافدون، أفراد وعوائل يوقفون سياراتهم في الساحة الترابيّة خلف الخيمة، وآخرون تأتي بهم سيارات تاكسي وتمضي مسرعة، أبناؤهم يتقافزون أمامهم. لم يصدّق حينما سمع الخبر، لكن الخيمة الزرقاء الكبيرة ببوابتها العالية تؤكد واحدة من الوقائع النادرة في حياة المدينة، واقعة لم تحدث منذ عقود وها هي تعود لتنصب خيمتها بالقرب من ساحة الطيران، أكبر خيمة يراها في حياته، عطّلت رؤيتها تفكيره، بانتظار اللحظة التي سيقدّم السيرك فيها أول عروضه.

كان ينام نوماً خفيفاً متقطّعاً، تعاوده الخيمة كلما أغمض عينيه وراح في النوم، وفور نهوضه يتوجّه إلى طيوره، بأصابعه يدقّ على القفص، يُصفّر ويناديها بأسمائها فتحرّك رؤوسها وتفتح أجنحتها، تتطاير بين المساند والأراجيح السلكيّة وبيوت الخشب الصغيرة. يفتح الباب ويمدّ يديه فيصعد ببغاواه كما في كلّ صباح، يتمايلان متقابلين في صعودهما

الجانبي حتى يصلا إلى كتفيه، يقف كلٌّ منهما على كتف، ينفضان أجنحتهما، ويواصل هو أعماله، يبدّل الماء ويغيّر الجريدة المفروشة على أرضية القفص ويضع الحبوب في إنائها، يتوجّه بعدها إلى حديقة المنزل، يجمع الأوراق المتساقطة، ويطمئن على شجرة السدر ـ أسابيع قليلة مرّت على زراعتها ـ ثم يفتح ماء السقي ويعود، الببغاوان على كتفيه وخيمة السيرك في ذهنه. عندما رآهم يعلّقون اللوحة الضوئية على بابها أحسَّ نبضات قلبه تتصاعد، وأخذ رأسه يدور لحظة أضيئت. إنه رجل يعشق السيرك، ذلك أمرٌ اصبح واضحاً الآن، لكن الغريب أن بداية عشقه له تتعدى زيارة السيرك الأولى للبصرة، وتتجاوز البصرة نفسها، لتستقر هناك، في بغداد، في الساحة الترابية الواسعة أمام جامع السيد سلطان علي في شارع الرشيد، حيث نُصبت خيام صغيرة متفرّقة حول خيمة العرض الواسعة وبجانبها أقفاص الحيوانات وعربات النقل، إنه السيرك البلجيكي الذي وصل قبل أكثر من ثمانين عاماً بناء على ما حكاه ساسون حسقيل، وزير المالية، على مسامع الملك فيصل.

كانت بغداد وقتها تعيش أياماً صاخبة إثر المعاهدة العراقية البريطانية الأولى، أحاديث الجاسوسية واتهامات الخيانة تغطي على كل حديث، وها هو الكلام يطير مثل دخان كثيف من أروقة المجلس النيابي والمحافل السياسية إلى المقاهي الضاجة والمحلات والزورخانات، ليشهد الجنود الانكليز ما لم يشهدوه من قبل من سخرية واستفزاز: «صاحب.. صاحب.. وين شاربك؟» وفور أن يلتفت الجندي تستقبله عاصفة من العفاط، والشتائم، والضحك.

سمع الملك بما يجري ووصله استياء الجهات البريطانية فتساءل عن

حلٌّ سحري يوقف كلَّ هذا الجنون. هنا يأتي دور ساسون حسقيل ليحكي لجلالته ما سمعه في سائر الأوساط في استانبول، وقد عاد منها لتوه، حول عرض السيرك البلجيكي.

ـ ليس لاستانبول من حديث، يا صاحب الجلالة، غير السيرك.

واصل بصوت خفيض وهو يخطو باتجاه الملك في صدر الديوان:

ـ أول سؤال وجهه إليَّ وزير المالية، قبل أي كلام، هو إذا كنت قد شاهدت العرض.

تشجّع الملك لسماعه أخبار السيرك من وزيره، وطلب منه العمل على جلبه إلى بغداد:

ـ بأية طريقة، يا صاحب المعالي، وبأي ثمن.

كان يعجب صاحبنا، منذ سمع الحكاية، أن يكون هناك، يعيش واحدة من رغبات الملك، يتجوّل حول الخيمة الواسعة، يمرُّ بين الأقفاص والعربات، ويؤدي بعضاً من الألعاب التي أدّتها الفرق مع الحيوانات الأليفة والمتوحشة وقد أذهلت أهالي بغداد، ولم يتحدّثوا إلا عن الأسود والنمور والأفيال، عن البهلوانات الصِبْيَة، والمدرّبات الحسناوات.

دخل مع أول مجموعة من الداخلين، بسهولة عثر على كرسيّه المرقّم بين كراسي الصف الأول، لا يتصوّر أن بإمكانه الجلوس في صف خلفي، ذلك أمر يفوق طاقته على الاحتمال، كان يريد أن يكون في قلب السيرك، قريباً من كل شيء: عروض الخفّة، والمهرجين، وألعاب الحيوانات الأليفة والمتوحشة. فتنته مدرّبة الحيوانات الأوكرانية ـ أعلن مقدّم الفقرة عن جنسيتها زيادة في التشويق ـ لا بما قدّمته من حركات

خفيفة راقصة، على الرغم من صدرها الممتلئ وساقيها المنحوتتين، بل بألعابها مع الشمبانزي والقنافذ والكلاب البيضاء الرشيقة المرّقطة ببقع سود، لم تكن ألعابها غير مقدّمة لعرضها المخيف مع ثعبان لامع الجلد، طوله خمسة أمتار، إنه ثعبان الأناكوندا، صاح مقدّم الفقرة باسمه مثل مفاجأة حاسمة، كان يدور وسط الحلبة ببدلته البرّاقة، محرّكاً لاقطة الصوت أمام فمه كما لو كان يقدّم مصارعاً بارعاً أو نجماً سينمائياً. مرّت الأوكرانية الجميلة قريباً من الجمهور، كان بياضها مشوباً بحمرة خفيفة، والثعبان ملتف على رقبتها مثل أنبوب بلاستيكي ثخين ومزخرف، توقفت وسط الحلبة ورفعت رأسه بحركة رشيقة، بدا الثعبان سئماً، غير عابئ بما يجري، لاحظه من مكانه وأحسَّ به. أخذت الموسيقى بالخفوت حتى توقفت، وضاقت دائرة الضوء وانقطعت معهما أصوات الجمهور، أصبح الضوء بقعة صغيرة مركّزة على اللاعبة التي حرّكت رأس الثعبان بخفّة مثل تنين ألعاب صينية ثم فتحت فمه وأدخلت يدها فيه.

بعد انتهاء العروض كان كلُّ شيئ مُرضياً بالنسبة له، خصوصاً وأنه لم يأت إلا ليطمئن إلى أن أحداً لم يفكر بتقديم فقرة الببغاء.

ـ إنها فقرتي المبتكرة.

قال لمدير السيرك الذي نظر إليه غير مصدّق، قبل أن يسأله:

ـ هل لعبت في السيرك من قبل؟

ـ لا، ولكنها ستعجبك.

التفت المدير لمقدّم عروض الخفّة كأنما لينقذه من ورطة، كان الآخر مأخوذاً بالرجل وقفص طيوره، عندما عاود النظر إليه وجده قد فتح

باب القفص وأخرج ببغاويه، وها هما يتمايلان في صعودهما. يبدو الرجل مسحوراً بما يفعل، غائباً فيه، كما لو كان وحده في هذا العالم، لا يزاحمه أحد، يحكي حكايته ويعيش فيها. عندما استقر الببغاوان على كتفيه نظر لوجهه، كانت بشرته منهكة في الضوء كأنها حُلقت تواً، وعيناه مجهدتين، شغلته التجاعيد الدقيقة تحت عينيه وعلى جانبي فمه، وانتبه لبياض لا يكاد يبين تحت شعره المصبوغ، لامع السواد.

ـ ستعجبك حقاً.

قال وهو يبتسم ويهزُّ رأسه، كان بودّه أن يتحدّث عن سيرك بلجيكي قديم بأسود وفيلة ونمور جاء إلى بغداد بناء على رغبة ملكيّة ساميّة، كان سيركاً رائعاً، لكن ذلك سيؤخره قليلاً، وسيحوّل الأحلام إلى حكاية عابرة يصعب لأحد أن يستعيدها أو يعيش فيها، لذلك فضّل أن يندفع مهرولاً في الحلبة الواسعة، أخرج كيس حبوب من جيبه وأخذ يُلقي بالحبّات فوق رأسه فيقفز أحد الببغاوين ليلتقط واحدة وينزل بسرعة على الكتف الأخرى، قبل نزوله يكون الببغاء الآخر قد قفز ليلتقط حبة جديدة، وهو يواصل هرولته ملاعباً يديه مثل جناحين، كان المشهد يشبه مروحة من رجل وطائرين. أكمل دورته ولم يتوقف إلا عند انتهاء الحبّات، قريباً من النقطة التي انطلق منها. الببغاوان يحرّكان رأسيهما، يفتحان منقاريهما و يُطلقان أصواتاً غير مفهومة، والرجل يلهث بصوت مسموع.

# الرجل الذي قُتل

كان هناك رجل يخرج من منزله كل صباح، في حوالي السادسة أو السادسة والنصف، بعد أن يحلق ذقنه وينقّط على راحة يده قطرات من كولونيا كثيفة ذهبية اللون، يمسح بها على خديه، يشعر لذوعتها ويعيش رائحة الليمون الخفيفة، مع اللذوعة وأنفاس العطر يُحسُّ بأنه يمرّ جوار بستان فاكهة يبدد رائحته الهواء، يرتدي بعدها حذاءه النظيف، اعتاد أن يمسحه بالفرشاة كمهمة أخيرة قبل النوم، ثم يخرج بخطوات هادئة، في الشتاء تصادفه الشمس في أولى لحظات شروقها، وفي الصيف تكون قد أنارت كل شئ، يلتقط حصاة من الممشى القريب، في أول الأمر كان ينتقي حصاة بعينها بعد أن يحمل بعضاً منها، يقلّبها بين يديه ثم يختار واحدة تناديه وترتاح لها نفسه، يضعها في جيب بنطلونه وهو يتحسسها بين وقت وآخر، ملمسها الصامت يضفي راحة على نفسه ويمنحه تكوّرها الصلب إحساسا بأنه يحمل شيئاً نادراً وثميناً، شيئاً لم يكن يُنقص إحساسه به أن يكون حصاة ملتقطة من ممشى قريب.

يعبر الرجل جسراً قصيراً بسياج حديد ليصل إلى أرض تنقطع فيها رائحة الليمون ويخفُ بريق حذائه وهو يواصل مشيه الهادئ على ترابها حتى يصل قريباً من منزل وحيد بطابقين، له شرفة دائرية واسعة ونوافذ عريضة بمظلات خشب كالحة اللون، طالما تصوّره بيتاً صيفياً مهجوراً لصاحب مزرعة كبيرة، أيام كانت الأرض مزروعة بأشجار عالية فاتنة الخضرة.

يقف قريباً من سور البيت الحجري، ينظر إلى شرفته بأعمدتها المديدة المتصدعة، ويُخرج حصاته من جيبه، يتلمسها للمرّة الأخيرة، يدوّرها بين أصابعه قبل أن يميل بجسده ليُلقيها، بكل ما يعتمل في نفسه من شعور بالوحدة، نحو نافذة محددة كان قد كسر زجاجها منذ زمن بعيد. غالباً ما يُصيب هدفه فيسمع لسقوط الحصاة صوتاً مكتوماً داخل الغرفة، وفي أحيان متباعدة يخطئ هدفه، يحدث أن ترتجف يده أو تهون قواه، لسبب ما، فتضرب الحصاة حافة النافذة أو تطيش إلى الجدار.. لن يغيّر ذلك من شعوره شيئاً فمهمته الصباحية قد اكتملت على كل حال.

سقوط الحصاة في الغرفة، أو اصطدامها بحافة النافذة، أو طيشانها على الجدار هو النقطة الأخيرة على سطر جولته، يعود بعدها وقد تخفف من ثقل يوم كامل بنهاره وليله، لم يكن يفكر فيه بغير اللحظة التي يرمي فيها حصاته على النافذة.

فور استدارته سمع صوتاً بعيداً، ليس صوت الريح التي تحمل الرائحة إنما هو صوت محرّك سيارة، أصاخ السمع فتأكد، محرّك سيارة حقاً، أضاف مع نفسه بأنها سيارة حمل، ربما، شاحنة متوسطة الحجم

طالما رأى بعضاً منها تخطف من بعيد، على الجسر أصبحت الشاحنة بمواجهته، كل منهما على ضفة، ها هي إذن، انحرف إلى الجانب، فور صعوده الجسر، متكئاً على سياج الحديد تاركاً لها أن تمرّ، من النافذة رأى امرأة تنظر نحوه، رأسها يستدير باتجاهه مع مرور الشاحنة، عيناها واسعتان كأنهما مفتوحتان منذ زمن بعيد، يرتسم أسفل كل منهما قوس رمادي باهت مثل هلال مقلوب، وشعرها مشدود إلى الوراء. رجعت المرأة برأسها كما لو كانت قد اكتفت من رؤيته، وأطلّ وجه رجل بشارب كثيف ولحية خفيفة بيضاء يقود الشاحنة، كان ينظر له هو الآخر.

استغرب رجل الشاحنة أن يرى رجلاً على الجسر أول الصباح، فهو لم يوافق على السكن في المنزل إلا بعد أن تأكد من تحقق شرطه الوحيد: أن يكون المنزل بعيداً عن كل صوت، لكن رؤية الرجل وقد استند إلى سياج الجسر حدّثته أنه سيرى آخرين يمكن أن تتعالى أصواتهم في كل وقت.

في صباح اليوم التالي خرج الرجل، كعادته، في حوالي السادسة صباحاً متبوعاً برائحة الليمون، يعتمل في نفسه الاحساس نفسه بأنه يمرّ جوار بستان فاكهة، متوجهاً بخطواته الهادئة وحذائه النظيف نحو الممشى القريب، التقط حصاة نادته وارتاحت لها نفسه، وضعها في جيب بنطلونه ومضى يعبر الجسر.

لم ينم الرجل ذو الشارب الكثيف واللحية الخفيفة البيضاء ليلته، منذ أن مرضت زوجته وهو لا ينام، يخطف غفوة قصيرة في أي وقت يعود بعدها لينظر لزوجته لعلها أغمضت عينيها، يقترب حافياً منها، خطواته

لا تكاد تسمع، ينظر لوجهها وهو يزداد شحوباً كل يوم، منذ أن أصابها المرض وهي لم تغمض عينيها لحظة واحدة، فكر في بداية الأمر أن التعب وحده كفيل بأن يرمي بها في مهاوي النوم، لكنها لم تكن تنام أبداً، كلما مرّ بها الوقت كانت عيناها تتحجران، قال ذلك للطبيب الذي التفت للمرأة كأنه يراها للمرّة الأولى.

ـ تتحجران، لا لا، إنهما مفتوحتان فحسب.

ذلك ما قاله قبل أن ينصحه بالابتعاد عن كل صوت.

ـ أي صوت، مهما كان خفيضاً، يؤرّق المرأة ويزيد من مرضها.

وافق الزوج على الانتقال إلى المنزل بعد أن تأكد، وقد زاره أكثر من مرّة، من انقطاعه عن كل صوت.

فتح نافذة الغرفة مكسورة الزجاج، الغرفة التي دخلها في المرّات السابقة مستغرباً تناثر الحصى على أرضها، في الليل حينما حمل بندقيته إليها لم يكن يتصوّر وجود حصى بهذا الكم داخلها، كان يتحرّك في الظلام كما لو كان يسير على درب غير معبّد، اقترب من النافذة ثم رجع فور رؤيته رجل الجسر قريباً من سياج المنزل، وأخذ يراقبه من بعيد، رآه يُخرج يده من جيب بنطلونه، يفرك أصابعه ثم يميل بجسده ويرمي شيئاً ما نحو النافذة، يا الهي إنها حصاة، حصاة نظيفة سوداء تعبر النافذة وتسقط على أرض الغرفة، انحنى من فوره ليرفع بندقيته المسندة إلى الجدار، كان يستعيد حركة طالما ألفها: أن ينحني رافعاً بندقيته، ربما كان صياداً خبيراً، أو حارساً ليلياً، أو ضابطاً دخل حرباً طويلة قاسية لم يتصوّر أنها ستنتهي يوماً، ربما يكون أياً منهم فهم جميعاً يألفون الانحناء القليل لالتقاط بندقية مسندة إلى جدار.

ضجيج أقسام البندقية كان كافياً ليلفت اهتمام رجل الحصى، رفع رأسه من جديد ناظراً نحو نافذة الغرفة، مستغرباً للصوت الذي كسر صمت المنزل، وفي اللحظة التي حاول فيها أن يستدير وقد أقنع نفسه بأنه لم يسمع شيئاً، أي شيء، سدّد الآخر بندقيته وأطلق النار لتستقر رصاصتها، بإصابة ذكيّة، فوق حاجب العين اليسرى، تماماً، مخلّفة نقرة صغيرة لا تبين، لحظات هيّنة مرّت أغمض الثلاثة بعدها أعينهم، المرأة المريضة المستلقية على سريرها وقد ارتجفت أجفانها للمرّة الأولى منذ زمن بعيد، ورجل الحصى الذي لم يفكّر بعد باكتمال مهمته الصباحية، ورجل البندقيّة.

يغيب زمان

أن تسكن شقة في بناية مطلّة على كورنيش البصرة يعني أن تكون كمن ينام على رصيف، يضع إحدى أذنيه على بلاطات الاسمنت المتربة ويُغمض عينيه تاركاً العالم يتسلل إلى رأسه، عالم مسموع أكثر منه مُتنفَساً أو مرئياً، على الرغم من رائحة الشط التي تمسح بدسامتها الأشياء، ومشهد الزوارق الخشب، بدخان عوادمها، وهي تفتتح صباحات الشارع بنقل رجال من بيوت الطين على الضفة الأخرى إلى قلب الكورنيش، حيث يتجمعون بدشاديشهم ويشاميغهم الملفوفة على الرؤوس، يدخنون ويتكلمون بأصوات تصلك متقطعة بانتظار عربات شحن تقلّهم إلى مواقع أعمالهم.

يكفي، في تلك اللحظة، أن تبقي عينيك مغلقتين لتعرف بأذنك وحدها أن الزمن قد تغيّر، فالرجال الذين ينتظرون ليسوا بأكثر من فلاحين سابقين، سينبئك لغطهم بذلك، استبدلوا رائحة الحقول البعيدة بوقوفهم الصباحي، يستمعون مثلك لفوضى الحركة المبكرة على جسر العوامات ويرون ما لا تراه .. ستؤكد لك جملة أعجمية

يصرخ بها سائق إحدى الشاحنات بعد أن أجهدته فوضى الحركة على الجسر أن لا شئ يظل على حاله، وأنك تستلقي على الحافة حيث يغيب زمان ويحلّ زمان.

تُنصت لاندفاع الشاحنات فتعلم من سرعتها واستمرار مرورها بأنها ليست شاحنات العمال إنما هي شاحنات إيرانية محمّلة بفواكه وخضار في صناديق صغيرة من الفلين، أو أواني بلاستيكية مربوطة ربطاً محكماً بحبال ثخينة ملوّنة، أو مشروبات غازية وعصائر، وتتصوّر لوحات تسجيلها تُعلن في شوارع البصرة عائديتها لمشهد أو قم أو ديزفول أو طهران، وتتحسس احتكاك إطاراتها على الجسر، حيث احتكت على الجسر نفسه لما يقارب العقد من الزمان سرفات الدبابات وهي تمضي تجاه الضفة الأخرى، وعجلات الإسعاف العسكري وهي تعود ..

## لا يطير ولا يغرّد

لم أحب الكلمات المتقاطعة يوماً، ولم أفهم، بصدق، ما المتعة من ورائها.

ولأن حياتنا تبدو شبيهة بها، قفص كبير بمربعات، بعضها مقفل وبعضها مفتوح، تملؤه حروف مكرّرة، وكلمات معكوسة أو مبعثرة، فقد زادت حيرتي أمام الناس الذين تسحرهم، ويذوبون فيها.

ناصر، أبو الجرايد، أحد هؤلاء المسحورين، هو أشهرهم، في البصرة، على الإطلاق، لا لعلاقته بالكلمات المتقاطعة، وهي ليست بالهيّنة، ولا لموقعه في ساحة أم البروم، وقد أصبح أشهر معالمها بعد هدم سينما الكرنك، بل لمهنته التي جعلته في القلب من أيامنا. إنه رجل البريد الأول في حياة معارفه ومعاميله من قرّاء الصحف. يتصل بك أحدهم مبشّراً بوصول كتاب، صديق ما أرسله من داخل العراق أو خارجه، بعد الخبر والسؤال عن الأحوال ثم التوقف، قليلاً، عن الكلام، تأتي الجملة الخاتمة، كأنما تنزلق من تلقاء نفسها، كما هي، في كل مرّة، بلا زيادة ولا نقصان: سأتركه عند ناصر.

ترك الكتاب عند ناصر لا يعني، بأية حال، أن الهدية ليست ذات شأن، كلُّ كتاب يصل إلى البصرة وصولاً غير رسمي، فطريقه إلى يديه. إن لم يدسّه، بانتظاركَ، في جوف منضدته الحديد العالية، في زحمة الكتب والصحف والمجلات، فسيضعه فوقها، ويغطيه بأقرب الصحف المعروضة إليه.

في أي وقت تصل يبلبلك بسؤال من أسئلته المتقاطعة، يتغيّر في كلِّ مرّة، كأنه كان يترقبك، منتظراً قدومك:

ـ من صنّاع السينما الأوائل، أخوان؟

ابتسمت وأنا أجيب:

ـ لومير.

سمعته يتهجى الحروف وهو يوزعها على المربعات، أكمل الكتابة وسأل من جديد:

ـ طائر يشبه النعامة، لا يطير ولا يغرّد؟

ـ الإيمو.

أجبت بسرعة، على غير العادة، كأنني تهيأت لسؤاله هذه المرّة. رفع رأسه عن الصفحة، نظر نحوي غير مصدق، ثم سأل:

ـ صحيح؟

ـ الإيمو، أبو علي.

قلت واثقاً.

غالباً ما أنسى ما أقرأه بعد وقت قصير، لكن طائر الإيمو ظل عالقاً يضرب في رأسي، حتى اللحظة التي سألني أبو علي فيها. لم يتهج الحروف ليكتب الكلمة، ترك الجريدة، مطوية، على جانب المنضدة،

ثم ألقى قلم الرصاص القصير ونهض متثاقلاً، سحب ظرفاً مقفلاً من تحت جريدة كان اسمي مكتوباً عليه بخط عجول، وضعه بهدوء على أقرب الصحف إليّ.

في ذلك الوقت كانت صور شباب الإيمو على صفحات الجرائد لا تشبه صور الطائر.

ـ لا يطير ولا يغرّد، يشبه النعامة، لكنه أصغر منها.

كرّرت الجملة بصوت لا يكاد يسمع، كما قرأتها في كتاب جيب عن أستراليا، وأنا أتابعه يعود إلى كرسيه.

## سناجب رماديّة.. دببة عسليّة العيون

## (١)

بعد أن أفرغ أمعاءه وزايله الثقل الداخلي أحسّ براحة تلفُّ جسده شبيهة براحة الاستسلام للنوم، وفوجئ بنزول الدفقة السائلة. كانت من الطول إلى الدرجة التي أفزعته، فكر بغرابة أن يُطلق جسده دفقةً طويلةً بعد أن استراح من عبء فضلاته الليّنة، لكنه حينما نظر إلى وعاء المرحاض هاله أن يراه مصبوغاً بالدفق الدموي. ملأ الإبريق سريعاً ودلقه مرَّة واحدة في المرحاض، ثم ملأه مرّة أخرى محدّقاً إلى فوهته وقد فاضت، من دون أن ينتبه، بالماء. كان يخشى أن يغلق الحنفيّة ويمسك الإبريق، فقد أحسَّ قطراتٍ قليلة تنزل متتابعة، تخيّلها تسقط على الوعاء الأبيض النظيف، وسمعها ترنُّ حال سقوطها.

بعدها أخذ يباعد بين أوقات دخوله المرحاض مكتفياً، في أحيان كثيرة، بالتبوّل واقفاً على الرغم من كرهه الشديد لذلك، فهو يتصوّر أن قطرات قليلة تظل عالقة مهما حاول نفضها بانتظار أن يرفع لباسه، ويحكم سحّاب البنطلون لتتسرب ببطء إلى ملابسه، يُحسّ على الفور لمسات من بلل بارد تلوّث جسده ليظل بعدها حبيس فكرة أن تجفَّ مخلفةً بقعةً مرئية على البنطلون .. كانت القطرات تعذّبه نهاراً بكامله، لكنه آثر، على الرغم من عذابه، الوقوف في حال استخدامه المرحاض، مؤجلاً الجلوس إلى أوقات الحاجة القصوى مدركاً أن دخوله اليومي يظل الفرصة التي يقتنصها جسده ليُعبّر عن اضطرابه،

فهو يبدو خارج ذلك الوقت جسداً عادياً، قد يزداد وزنه قليلاً أو ينقص بما يُشعر بطبيعيته وسلامته العضوية، وقد يُعين صاحبه على أن يضحك لنكتة، أو يحزن لمشهد، بما يشير لأريحيّته، أو لإنسانيته الرقيقة إذ يتألم مع كل واقعة بؤس تصادفه في تجواله اليومي، على الرغم من سرعة ابتعاده عنها. لكن جسده يرفض الإذعان على نحو دائم، كأنه غير مهدد، أو كأن شيئاً من حوله لا يحدث أبداً؛ إنه يستغل الأوقات الصباحيّة ليُنزل مع فضلاته كميّة من الدم تتناسب مع ما يحدث في أعماقه من اضطراب، وما يعتصره من قلق.. نزف متصل لدم نقيّ الاحمرار غير مصحوب بألم، يمكن عَدُّه مقياساً مرئياً لدرجة الخطر، إذ أن ما يُكتم من خوف وانفعال يُسرَّب في دفقات غالباً ما تنزل بعد انقطاع الفضلات، فيبدد الكوم الليّن تحته بلونه البني الباهت وبخاره الخفيف مطلياً برشّات دمويّة.

## (٢)

إن أيّة رؤية مهما كانت خاطفة لوجهٍ غريب يُحدِّق تجاه السيد عبد الكريم بدر، بقصد أو من دونه، مباشرة أو من وراء سياج، كافية لهزّه بما يلاطم مياهه الداخلية، فترتجف يمناه إرتجافة خفيفة هي أولى علامات نزوله إلى سردابه الشخصي. يفتح صحيفته على الفور في أي مكان كان، بانتظار الباص، أو على ضفة الشط، أو في المقهى التي

منع نفسه من الجلوس فيها منسحباً من دون أن يشعر به أحد. أشياء أخرى أقنع نفسه بالامتناع عنها: التوجّه الصباحي إلى المخبز، المرور في الطريق الزراعي المؤدي إلى دائرته، ساعة التجوال التي تبدأ مع الغروب من منطقة الخندق وتنتهي عند شط العرب قريباً من جسر الحديد العائم، مروراً بالأسواق القديمة المسقّفة.

## (٣)

كان يكتفي، في البداية، بأن يحمل الجريدة مطويّة تحت إبطه ليكون بمقدوره أن يقف حال رؤيته وجهاً غريباً يُحدّق، ينفضها بضربة واحدة ثم يرفعها أعلى من رأسه قليلاً، كما لو كان يتفحّص خبراً في وسط الصفحة، مخفياً علامة خوفه الثانية: الارتجاف اللاإرادي لجفني عينه اليمنى قبل أن تدمع ويغيم أمامها كلُّ شيء. إنه ما زال يتحسس ألم ركبته بعد أن اصطدم بمنضدة المخبز لحظة ألتفت إليه الرجل. لم يكن يتصوّر أنه سيراه في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، داخل المخبز وقد ارتدى دشداشة منزلية دونما ياقة ولا أكمام، رقبته غليظة داكنة السمرة، وذراعاه مفتولتان. أخذ يبتسم وهو يخطو نحوه، اقترب منه فاختلطت رائحة جسده القويّة برائحة الخبز الحار، مدَّ رقبته فرأى الشعرة أعلى الصدر تنبت على جذر الرقبة ملويّة مثل سلك أسود قصير وكتم، مرّة أخرى، رغبته في أن يمدَّ يده ليلتقطها. تساءل الرجل بصوت خفيض:

ـ هل فكّرتَ بالأمر؟

الرقبة والشعرة والذراعان والرائحة، ألقت جميعها بالسيد عبد الكريم بدر إلى جوف سردابه فارتجف جفنا عينه وغامت الرؤية أمامه، رأى الرجل يبتسم، كما لو كان يقف وراء لوح زجاجي مضبّب، وأخذ المخبز يهتز وقد تصاعد أجيج تنّوره، أحسَّ بعينه تدمع وهو يحاول أن يؤتي حركة، أية حركة، ولو كانت هزّة دقيقة من أصغر أصابعه، فاندفع من دون أن يرى شيئاً واصطدم بركن المنضدة. قرر، بعدها، عدم الذهاب إلى المخبز، شاطباً من جدوله اليومي مهمّة التزوّد الصباحي بالخبز الحار، ملحقاً إياها بجولة الغروب، معللاً ذلك بما توفره مثل هذه الخطوة من جهد ووقت، إذ يمكنه أثناء عودته المرور بأحد أفران العشار الأوتوماتيكية لشراء كيس خبز، مما غيّر قليلاً في خطته اليومية، فالكيس أغلى ثلاث مرّات من سعر الخبز العادي مما يعني إن على الكيس الواحد بخبزاته العشر أن يكفي مدّة ثلاثة أيام ليُعادل ما حُدد من مبلغ للخبز لتلك الأيام، أي انه لن يأكل أكثر من خبزة أوتوماتيكية في كل وجبة مع فائض خبزة واحدة للأيام الثلاثة لم يشأ أن يقرر على الفور كيفية التصرّف بها.

لم يتصوّر أن بإمكان حادثة المخبز، وما ترتب عليها من تغيير في جدول مهماته اليومية، أن تمدَّ تأثيرها إلى صحته وقد بدأ يشعر بالإرهاق ما إن يبذل أي جهد مهما كان ضئيلاً. قال في نفسه أن خبزة واحدة كل وجبة أمر صحي ينظم غذاءه ويريح معدته، خصوصاً وان راتبه الشهري لا يسمح له بمباهج غذائية، وإن فكر منذ وقت بشراء كوم من العظام يمكنه أن يطبخه مرّات مع الحساء، إلا انه لسبب ما لم ينفّذ

فكرته، غير أنه ما إن يرفع سجل الأوقاف الكبير من على الدولاب في ركن غرفته في الدائرة، أو يعيد ملفة أملاك الدولة إلى الأرشيف حتى يُحسَّ بقلبه وقد أخذ ينبض بشدّة ويشعر بالتعب فيتهاوى على أقرب كرسي.

## (٤)

أخذ يستعين بأبي محمّد الفرّاش في إنجاز مثل تلك المهمات البسيطة، غير أنه انقطع عن تكليفه بعد يوم تسلّم الراتب، إذ وقف أبو محمّد أمام باب الغرفة، لاحظه أثناء الانقطاعات القصيرة عن الانشغال بالمراجعين، يدخن سيكارته ويطيل النظر إليه، ما أن يرفع السيد عبد الكريم بدر عينيه حتى يحوّل أبو محمّد نظره، كأنه ينظر إلى الممر، أو يخاطب أحد المراجعين، فيدير رأسه أو يميل قليلاً، لكنه لم يكن ينسحب من أمام الباب. ما إن انفضّ المراجعون وخلت الغرفة حتى دخل بخطوات ثقيلة، استدار إلى جانبه ثم انحنى حتى كاد ذيل كوفيته أن يؤذي عين السيد عبد الكريم بدر، أخرج من جيب قميصه العسكري ذي الأزرار البنيّة الكبيرة قطعة كارتون لم تكن بالأصل غير علبة سكائر، وبقلم رصاص قصير أشّر على وجهها الفارغ مجموعة من الخطوط، كل أربعة عمودية منها ملتحمة بخط خامس منحن، ثم قال:

ـ عشرون شاياً أستاذ.

عندها وبمثل لمح البصر اكتشف ما بين أبي محمّد والرجل ذي الرقبة الغليظة من شبه. لم يفكر بأنه ما غيّر عادته، منذ أن عُيِّن في دائرة العقارات الجنوبيّة بتناول كوب شاي واحد بين يوم وآخر، ولم يخطر بذهنه أن أبا محمّد يعمل على أن يقبض بسعر الأكواب الخمسة المضافة قيمة التكليفات البسيطة بالذهاب إلى الأرشيف أو دولاب السجلات، كان مستغرقاً بالتفكير بما بين الرجلين من شبه، خصوصاً بعد أن بدأت يمناه بارتجافتها الخفيفة، وأخذ جفنا عينه بالارتعاش، فتمنى لو كان أبو محمّد قد فتح صدر قميصه ليتأكد إن كانت ثمة شعرة ملويّة مثل سلك أسود قصير تنبت على جذر رقبته هو الآخر.

## (٥)

هل ابتسم أبو محمد لحظتها ؟ لم يكن السيد عبد الكريم بدر متأكداً من ذلك وإن كان قد رآه، بلا وضوح، يفتح فمه كما لو كان يقف وراء لوح زجاج. فيما بعد تداخل الوجهان واشتبكت ملامحهما. قبل أن يتصاعد ارتجاف يده وتغيم الأشياء أمام عينيه رأى أبا محمّد يحدجه بنظرة غاضبة ويقول شيئاً لم يتبينه على الرغم من قصر المسافة بينهما، تماماً، مثلما رماه الرجل هذا الصباح، وقد صادفه على الطريق الزراعي، بنظرة عمل على الانهماك بقضايا العقارات والمراجعين طول النهار كي ينسى أثرها بين الجداول والأرقام والمواقع والمساحات، من دون

أن يتصوّر أن بإمكان أبي محمّد الفرّاش استدعاءها في لحظة غضب إلى جو الغرفة المليء بالأنفاس الغريبة، بعيداً عن نسمات الصباح وقد اعتاد النزول أمام متنزه الأندلس العائلي ليتوجه إلى عمله مروراً بالطريق الزراعي.

## (٦)

يعرف أن بمستطاعه البقاء في الباص لينزل بعد منطقتين، حيث تكون ساعة ميدان المعقل المربعة بقاعدتها الإسمنت الرشيقة قد أخذت تقترب من الثامنة صباحاً، لكنهُ يفضّل أن ينزل أمام المتنزه قبل عشر دقائق أو أكثر، ليتمشى قاطعاً الطريق الزراعي، مفكراً ببهجة المساءات العائلية وقد بدأ عمال الخدمة يرفعون آثارها، ويعيدون للمتنزه صورة حديقة لم تمسس من قبل: الكراسي النظيفة الملوّنة، العشب الأخضر البليل، الأراجيح الخفيضة يلمسها هواء الصباح فتتحرّك باندفاعة تكاد تكون لا مرئيّة. كل شيء آمن، هادئ، مستقر، يحلو للسيد عبد الكريم بدر أن يتأمله من خلف سياج الحديد المشبّك، وقد أعيدت تهيأته لبهجة عائلية جديدة.

## (٧)

يتذكر أنه لمح السيارة البيكب البيضاء بعد أن نزل من الباص، أثناء عبوره الشارع، لكنه لم يهتم كعادته، كان وقتئذ منشغلاً بالصباح إلى ما يكفي لنسيان ألم ركبته، وغضّ النظر عمّن كان يقود السيارة، أو السبب في مرورها على شارع المتنزه في مثل هذا الوقت.. كان في أقصى لحظات وحدته يتأمل بهدوء ودِعَة، من خلف السياج، آثار سعادة الآخرين. لذلك لم يكن يهمّه أن يتقصّد النظر لحظة وصوله إلى منتصف الطريق إلى الجانب الأيمن بأشجار السدر العالية مُفضّلاً، كلما لاح له شبح إنسان، أو رأى سيارة تبطئ من سرعتها، أن يستمر بالنظر إلى أمام، مكتفياً من جلال الطبيعة بالأنفاس الصباحيّة التي تُطلقها الأشجار، وبزرقة السماء الشذريّة الصافية وبالزقزقات المتلاحقة وهي تنقر، بحيوية متصلة، صمت المكان، لكنه إلتفت، فرأى، وأحسّ بالأنفاس تضيق في صدره، وبالزرقة تتبدد من فوقه، وبالزقزقات تتصاعد مثل نقر معدني. كان قد رأى سعاد بثوبها المطرّز، لحظة وصولها قرب سيارة البيكب البيضاء، وقد أطلقت يدُها العباءة بحركة ارتياح فلمح وردة الدانتيل الحمراء مثنية الأوراق أعلى الصدر، لكنه ارتعب لمرأى الرجل وقد نزل من السيارة، فتح بابها متكئاً بساعده الأيمن على حافة النافذة، يمسك بيسراه، بطرفي السبابة والإبهام سيكارته، محدِّقاً تجاهه. نقل نظره بسرعة إلى أمام، كما لو كان يمحو المشهد، يغيّب سعاد،

والثوب، واليد المرتاحة، ويزيل السيارة، والرجل بسكارته وعداء نظرته، ليظل وحيداً بلا أنفاس ولا زرقة ولا زقزقات، ويصدر قراره في اللحظة نفسها، من دون سابق تخطيط، بعدم المرور مرّة أخرى بالطريق الزراعي، والاكتفاء من عالم الصباح بالنظرة الخاطفة من نافذة الباص. مع كل خطوة كان يمحو جزءاً من الطريق بجنّته العائلية، وأشجاره، وسمائه حتى لم يعد يذكر، مع وصوله إلى الدائرة موقعاً للطريق على خارطة اهتماماته الشخصيّة.

## (٨)

ظهراً، بعد عودته، استلقى على الفراش من دون أن يخلع ملابسه، أو يتخفف من حذائه، لو رأيته ساعتها وقد شبك أصابعه تحت رأسه وفتح عينيه مُحدِّقاً لنقطة محددة في سقف الغرفة لهالك انقطاعه عن كل شيء من حوله، وغرقه حتى القاع في بحر أفكاره، لكنه لم يكن منفصلاً عن أي شيء، مهما كان ضئيلاً.. كان ينزل على إيقاع تنفسه حتى يصطدم بأرض ذهنه الفسيحة الخالية ثم يصعد من جديد بانتظار لحظة أحسَّ منذ الصباح قوّة حضورها، وقد تأكد منها قبل دقائق فحسب، بعد أن رأى باب بيت السيد عادل، زوج سعاد، موصداً، والسيارة البيضاء متوقفة أمام المنزل المقابل لمنزله. إنه على يقين بأن الرجل الذي غاب اسمه عن ذهنه تماماً ـ على الرغم من انه قد عرَّفه.

بنفسه ذاكراً اسمه وكنيته مع ابتسامة لا معنى لها ـ يتحيّن اللحظة المناسبة ليخطو. عندها، كما يحدث في التوقعات الدقيقة، وفي مصادفات أفلام السينما، دقّ الجرس.

## (٩)

أول شعور خالجه، والجرس يحزُّ أعصابه بصوته المعدني الصقيل، حاجته للتوجّه إلى المرحاض.. إنها المرّة الثانية هذا النهار التي يتطلّب جسده فيها، لكن رشّةً طويلةً حمراء تلوّث تفكيره في اللحظة نفسها وتدفعه للانحراف بعيداً عن المرحاض من دون أن يمنح ضغط أمعائه أذناً. فتح الباب ورأى الرجل يقف، بملابسه التي رآه فيها صباحاً، قريبا من العتبة. لم يكن يتعرّق، أو يبتسم، أو يداري شعوراً، كان يلاعب بيده اليمنى سلسلة معدنية قصيرة، يلفّها بحركة دائرية على سبابته الممدودة ثم يفكها بحركة عكسيّة سريعة، ليعاود لفّها من جديد. في الداخل ظل واقفاً في بهو المنزل، مسح بنظراته على كراسي الخشب المصفوفة، وطاولة الساج البيضوية المتربة، ثم توقف بنظره على الصورة الملوّنة على الجدار: الأسد نصف مغمض العينين، يستلقي على العشب، لبدته تكاد تغطي ثلث الصورة، قريباً منه ترعى ثلاث ظباء آمنات، وفي البعيد، في آخر الصورة أو آخر العالم، تدفّق شلال مرتفع لمائه لون الحليب الطازج. كان بود السيد عبد الكريم بدر أن يُحدّثه عن خدع

صور التقويم، وعن حيواناتها التي لا تجتمع حتى في الخيال، لكن الرجل حوّل نظره إلى شقوق الزاوية القريبة قبل أن يقول:

ـ لقد أضعنا الكثير من الوقت .

أحسّ بالصوت يملأ البهو ويتردد صداه في أرجاء المنزل، لم ينتظر الإجابة فقد أضاف على الفور:

ـ قلت لك إننا بحاجة إلى المنزل، عائلتنا كبيرة ومشتتة بين منازل الإيجار والشقق وغرف الفنادق.

مطّ كلماته، ورفع حاجبيه الكثين، وهو يلفظ جملته حتى تصوّر السيد عبد الكريم بدر أنه قد أضاع أي معنى لها. عاود النظر إلى السبابة ورأى السلسلة ماتزال تلتفّ وتفتك، استغرب للمفتاح المربوط بحلقة إليها. إنه، قطعاً، ليس مفتاح السيارة البيكب، كما أن حجمه الدقيق ولونه المعدني المغبر يمنع أن يكون مفتاح منزل أو شقة، إنه محض مفتاح بسلسة قصيرة، بلا علامة أو ميدالية، أو رقم، أي أنه لا يبدو كذلك مفتاح غرفة في فندق. همَّ بأن يسأل إن كانت المنازل والشقق وغرف الفنادق من دون مفاتيح، لكنه خشي عاقبة سؤاله، فوجد نفسه يقول بصوت خفيض:

ـ إنني منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً أسكن هذا المنزل.

أحسَّ بنفسه ينطق منذ خُلق للمرَّة الأولى، ما إن أوقف الرجلُ حركة سلسلته ورفع وجهه مستغرباً حتى تأكد له ما كان يشعر به منذ زمن بعيد من أن اللغة تظل عاجزة مهما أوتي أصحابها من القدرة، على أن تضيء كلَّ شيء. ثمة شيء يظل معتماً على الدوام في ركن من أركان النفس، وهو عين ما أراد قوله، عبر جملته تلك، عن صلةٍ ما برحت

تنمو منذ زمن بعيد بينه وبين المنزل، لكن لغته ظلت عاجزة، وظلت معها حياته داخل المنزل هائمةً، بلا وضوح، كأنه عاشها في حلم. تحوّل شعوره إلى يقين وهو يرى الرجل يرمي بسلسلته إلى أعلى، ثم يلتقطها بكف مفتوحة ليدسّها بخفة في جيب بنطلونه ويقول:

ـ لن نتركك تنام في العراء، سنؤمّن لكَ بيتاً يناسبك أكثر من هذا البيت..

شعر بدفقة عنيفة من الألم تتفجّر مثل تيار كهربائي أعلى بطنه، ثم تنزل ملتويةً مع أمعائه لتستقر وقد تصاعدت شحنات ألمها ضاربة في نغزات متوالية عضلته الشرجيّة، وأخذ البهو يتموّج من حوله، رأى الأسد يضرب قائمتيه الأماميتين على العشب، ينفض لبدته، يفتح فمه ويزفر، فيملأ نتن أنفاسه المنزل.

## (١٠)

بعد عودته من جولة المساء يقضي السيد عبد الكريم بدر حوالي نصف ساعة في إعداد عشائه، مهما اختلفت نوعيته: طماطم مقليّة، أو بطاطا، أو باذنجان، أو كوب حليب حتى، متمهلاً في كل خطوة، يستلقي بعده على السرير مرتدياً بجامته المقلّمة وقد تآكلت ياقتها ليبدأ رحلته المسائية مستمعاً بسكينة وشغف لما تبثّه إذاعات العالم، إنه يستكمل بما يلتقط من إشارات صوتيّة جنّته إذ يستعيد، في لحظات وحدته، شعوره بالحياة وهي تتجدد على نحو دائم، منصتاً لكل ما يندّ

عنها من أنفاس، يُغمض عينيه وقد وضع جهاز الراديو على المنضدة القريبة مستسلماً لبريق الأصوات وهي تضيء بومضاتها لياليه، كان قد استمع قبل أكثر من أسبوع، لأحداث العالم وتحولات فرق الصدارة في دوري كأس الأمم، والربع الأخير من تقرير حول سينما الطفل، يذكر كذلك، أنه أنصت مأخوذاً لإعلان بثته إذاعة ( مونت كارلو ) للمرَّة الأولى عن عطر (سيدة المساء)، وإن لم يكن قد تبيّن خلفيّة صوت المرأة وهي تستعرض بعذوبة سمات العطر، إن كانت هبّة ريح رخاء أو دفقة موج.. كانت يداه ممدودتين وقد فتح كفيه مسترخياً وباعد ما بين أصابعه لحظة أحسّ بالصوت يأتيه من بعيد، أبعد من كل إذاعات العالم، كما لو كان ينزل أبيض اللون مع مياه شلال دافق. أغمض عينيه وكاد أن ينزلق إلى هوّة النوم لولا ضجّة الأصوات المتصاعدة قرب المنزل، فتح عينيه على الفور وأنصت، مرّة أخرى، فلم يكن من المألوف أن تحدث ضجة من أي نوع في الشارع، اعتدل في سريره وخفّض من صوت الراديو مفكراً إن دقائق قليلة عابرة كفيلة بإنهاء كل شيء، فربما تعطّلت سيارة أثناء مرورها من أمام المنزل، لكن مثل هذا الاحتمال لم يجد صدىً في نفسه، فمنطقة سكناهم تقع خارج التجمعات السكانية، وهي أقرب إلى الطريق الخارجي منها إلى الطرق الداخلية، فضلاً عن أن قلّة منازلها تجعلها بمنأى عن رغبات سواق السيارات والباعة المتجولين بجلبتهم التي تنقطع، مع ذلك، ليلاً، لذا فمن المستبعد أن تمرَّ سيارة مروراً عابراً من أمام منزله. أغلق جهاز الراديو ثم نزل من السرير وتوجّه، حافياً، إلى البهو، وما زالت الموسيقى تلامس روحه، وإن أخذت تخبو شيئاً فشيئاً مشكّلةً خلفيّةً

لما يحدث في الخارج: أبواب تُفتح، وأشياء تُجر، وسيارات تُوقف من دون أن تُطفأ محرّكاتها، مع تنبيهات مستمرة دفعته لأن يُكمل خطواته تجاه السُلّم، يصعد حتى النافذة الصغيرة المطلّة على الشارع ويرى، قبل كل شيء، سيارة البيكب البيضاء، ثم يرى المشهد كما لو أضيء على نحو كامل بشاحنتي الأثاث المنزلي وعمال التفريغ بحركاتهم المتصلة بين المنزل والشاحنتين، بعد دقائق وصلت سيارة شفرليت سوداء، توقفت خلف السيارة البيكب لتنزل منها سيدة في منتصف العمر، قرّب وجهه من فتحة النافذة وتصوّرها أكبر من منتصف العمر بأكثر من عشر سنوات، بيضاء، قصيرة، ممتلئة، تُلقي بعباءتها على كتفيها وتحمل حقيبة يد لامعة السواد .. سحبت ذراع العباءة إلى أعلى فالتمعت أساورها في الضوء، ثم رأى الرجل ذا الرقبة الغليظة يتجه سريعاً نحوها، يقف أمامها ويحرّك يديه، فتتراجع المرأة متكئة على السيارة.

## (١١)

إذا كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يرى فيها المرأة، فهي الثالثة التي يرى فيها الرجل وقد حادثه عن قرب في المرتين السابقتين. ما إن دخل أسواق (السلام) الواقعة في الشارع الخلفي، قبل أقل من أسبوع، لشراء علبة بزاليا حتى سمع سعيد صاحب الأسواق يهتف من خلف منضدته:

ـ ها هو السيد عبد الكريم، سيُغنيك حضوره عن حديثي..
إلتفت صوب الجهة التي وجّه سعيد حديثه نحوها فرأى الرجل يلتقط من على رفٍّ قريب علبة سكائر أجنبية ثم يخطو نحوه مبتسماً.
ـ تشرفنا سيد عبد الكريم .
ـ لنا الشرف.
أجاب وإن لم يبد عليه أنه فهم شيئاً، التقط سعيد ذلك فقال:
ـ الجماعة أجّروا المنزل المقابل لمنزلك.
علّق الرجل مازحاً:
ـ سنسكن، على سبيل التجربة، عشر سنوات فقط.
من خلال واجهة الأسواق الزجاجيّة نظر السيد عبد الكريم بدر فرأى السيارة البيكب البيضاء تكاد تقتحم بمقدمتها المعدنيّة المتربة السوق، إلتفت فرأى سعيداً مستمراً بالضحك ورأى يد الرجل تسحب الشريط الملوّن الرفيع ثم تفتح العلبة، ترفع اليد الأخرى قطعة السيلوفان وتدفع ثلاث سكائر على نحو متدرّج، ثم تقدم العلبة للسيد عبد الكريم بدر، هتف سعيد :
ـ لا تتوقع بأن رجلاً مثل عبد الكريم يؤمن بالتدخين..
قال الرجل:
ـ شيء جميل
ثم أضاف بسرعة:
ـ لا يمكن أن تتصوّر كم هي القسمة جائرة بين الإنسان والسيكارة..
بهزّة من رأسه تساءل سعيد فواصل الرجل:
ـ طبعاً، مهما امتدّ عمر الإنسان فهو لا يدخن أكثر من خمس سنوات

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تأخذ السيكارة بتدخينه

عادا للضحك وقد شاركهما السيد عبد الكريم بدر بصوت لا يكاد يُسمع، انسحب بعدها متعللاً بإجهاد نهار عمل. قبل أن ينهض عن كرسيّه مدَّ الرجل يده نحوه وهو يقول:

ـ اسمي مردان، الجميع يسميني بأبي ربيع، يمكنك أن تختار ما يحلو لك منهما.

مدَّ السيد عبد الكريم بدر يده وقد مال إلى أمام فرأى الشعرة القصيرة تنبت على جذر الرقبة وراودته الرغبة بالتقاطها للمرَّة الأولى. خرج من دون أن يشتري علبة البزاليا.

## (١٢)

في أسواق ( السلام ) صادفه مرَّة ثانية، كانت سعاد، زوجة عادل، واقفة قرب منضدة سعيد وهو يعدّ مجموعة من الأوراق النقديّة مختلفة الفئات مواصلاً حديثه:

ـ اسمه مردان.. يسكن مع أخته التي توفي زوجها قبل أكثر من عامين من غير أن يخلّف منها..

خفّض صوته وهو يضيف:

ـ يبدو أن الفقيد ترك مبلغاً محترماً، لم يقل الرجل ذلك لكنني عرفته

من مصادر خاصة..

بعد أن انتهى من عدِّ الأوراق جمعها بحلقة مطاط رفيعة، سحب درج المنضدة وألقى الرزمة ثم رفع رأسه مرحِّباً كما لو كان قد انتبه تواً لحضور السيد عبد الكريم. لمّت سعاد عباءتها وتراجعت، لم تكن عندئذ ترتدي ثوبها المطرّز بوردته مثنية الأوراق، سألها عن عادل فقالت بصوت واطئ أن صحته تتراجع ولا تكاد تغمض له عين، آلمه أن يظلّ الرجل ليل نهار مفتوح العينين، مثلما آلمته نبرة صوتها. انشغل بعدها بالتجوّل داخل السوق، وتأمل أرفف البضائع، أمام الألعاب توقف متأملاً عيون الدببة العسليّة، وآذان الأرانب الصغيرة ثلجيّة البياض، وأذيال السناجب بألوانها الزرقاء الرمادية، كان قد ارتسم على شفتيه ظل ابتسامة، متذكراً ما سمعه عن خفتها وسرعة تسلقها الأشجار وهو يكتم رغبته في أن يمدّ يده ليلمس الأبدان الممتلئة مكتفياً بالنظر حتى انه يعلم ما ينقص منها، بين زيارة وأخرى، أو يزيد، محاولاً، في اللحظة ذاتها، أن يمنع نفسه عن الاهتمام بحديث سعيد وقد تحوّل إلى همس بعد أن اقتربت سعاد مرّة أخرى من المنضدة، وضعت يدها، مفتوحة، على السطح المعدني، وخفّضت رأسها. أحسَّ شيئاً مبهماً في حديثهما يُحلّق مثل نُذر ضبابيّة في أجواء السوق ثم ينزل، شيئاً فشيئاً، فتثقل رائحته الهواء، وتغيّب التماع الحدقات، مدَّ يده ليمسح على عيون الدببة، لكن دخول الرجل ذي الرقبة الغليظة بابتسامته الواثقة ونظرته المصوّبة، من بين أرفف البضائع، أربك اليد الممتدة فصدمت من دون إرادة، رأس الدب، فانكفأ على لوح الرف ثم سقط، بصوت مسموع، إلى أسفل.

# (١٣)

دقَّ أبو محمّد بقلمه القصير على باب الغرفة وقال:
ـ تلفون ..
لم يكن يُحدِّث أحداً، كان وجهه مصوباً نحو الباب كأنما ليحدد في سرعة النقطة التي سيضرب برأس قلمه عليها، في اللحظة التي رفع السيد عبد الكريم بدر رأسه فيها كان هو قد استدار فتلاعب ذيل كوفيته على كتفه الأيسر، أغلق السجل ودفع كرسيه إلى الوراء ثم وقف وفي رأسه ترنُّ كلمة أبي محمّد بدقات قلم متصاعدة، أحسَّ نبضات قلبه تتصاعد، مرّات قليلة التي اتُصل به عبر تلفون الدائرة، مرات بعيدة لا يتذكرها.. حينما دخل غرفة مسؤول القسم كان الرجل قد خلع نظارته وأخذ يفرك عينيه بمنديل باهت الزرقة، وكانت سماعة الهاتف على طرف المنضدة، أنزل الرجل منديله ونظر بعينين محمرّتين للسيد عبد الكريم بدر وقال شيئاً عن حساسية العيون، والنظارة التي لم تَعُدْ تصلُح، والوجوه التي تغيم، ثم قطع حديثه معتذراً.
عبر الهاتف بدا الصوت واضحاً، كأنما يوصل حديثاً انقطع للتو:
ـ كل شيء جاهز سيد عبد الكريم.
ثم أضاف بعد توقف قصير:
ـ أرجو أن تكون قد فكرت.
أراد السيد عبد الكريم بدر أن يقول شيئاً، يتساءل أو يجيب قاطعاً

ارتفاع وشيش الهاتف، لكن الرجل واصل وقد فقد صوته وضوحه:
ـ سنرضيك .. تأكد من ذلك.
وبلهجة حازمة أضاف:
ـ سأبعث لك من يُعينك على إخلاء المنزل..
قبل أن يُعيد سماعة الهاتف رأى عيني مسؤول القسم تحدّقان نحوه وقد ازدادت حمرتهما.

## (١٤)

بعدها أقلع عن آخر سعاداته: سعادة المساء، وهو يستمع بسكينة وشغف لما تبثّه إذاعات العالم، ليعدّ، مع أولى ساعات الليل، السيارات التي تتوقف أمام منزله والأبواب التي تفتح، وليعيد، بعد وقت لا يتبينه، عدّ الأبواب وهي تُفتح منتظراً دوران المحرّكات قبل أن تنطلق السيارات بعيداً في صمت الليل.. كانت الأصوات البشريّة، بين مجيء السيارات وذهابها، تتعالى، والضحكات ترنُّ في فضاء الشارع مخلّفة بريقاً لا يكاد يزول، وكان مع كلّ سيارة قادمة يُحسُّ نغزات الألم تعتصر أمعاءه نازلة إلى أسفل، فيقطع أنفاسه مصيخاً السمع لخطوات تقترب، وطرقات تتعالى..

## صدر للمؤلف:

- (على دراجة في الليل)، قصص، دار أزمنة، عمّان ١٩٩٧.
-.(العبيد)، كتاب قصصي، دار أزمنة، عمّان ٢٠٠٠.
- (ملاعبة الخيول)، طفولات قصصية، ط١/ دار الشؤون الثقافية، بغداد ٢٠٠٣، ط٢/ دار السياب، لندن ٢٠٠٨.
- (سرد الأمثال)، دراسة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٣.
- (الفريسة)، رواية، دار الشؤون الثقافية، بغداد ٢٠٠٤.
- (كتاب المراحيض)، رواية تعرّف، دار أزمنة، عمّان ٢٠٠٧.
- (سلوان السرد)، دراسة، دار الشؤون الثقافية، بغداد ٢٠٠٨.
- (إغماض العينين) قصص، دار أزمنة، عمّان ٢٠٠٨، ترجمتها إلى الانكليزية ياسمين حنوّش وصدرت عن دار (مومنت)، لندن ٢٠١٣.
- (المكان العراقي/ جدل الكتابة والتجربة)، معهد الدراسات الإستراتيجية، بيروت ٢٠٠٩.
- (بلاغة التزوير)، دراسة، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠١٠.
- (صداقة النمر)، رواية، دار العين، القاهرة ٢٠١١.
- ( مدينة الصور)، رواية، الدار العربية للعلوم، بيروت، دار أزمنة، عمّان ٢٠١١.
- (الكتابة، انقاذ اللغة من الغرق)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، دار ورّاقون، البصرة ط٢/ ٢٠١٤

## حامل المظلّة

# القصص والحكايات


مقدّمة: النسر والحكاية ........ ٧
١- أعمى بروغل ........ ١١
٢- أنت لست سمكة ........ ١٧
٣- حامل المظلة ........ ٢٥
٤- النزيل ........ ٣١
٥- حِكاية فاطمة ........ ٣٧
٦- كلّ منا حكاية عابرة ........ ٤٣
٧- من مكان بعيد ........ ٤٩
٨- ما تشاء من الكلمات ........ ٥٣
٩- وقت التسلية ........ ٥٩
١٠- يتنقل في الليل ........ ٦٧
١١- تاريخ المدن ........ ٧٣
١٢- لقطة قريبة لعين الغزال ........ ٧٩
١٣- شوارع النظر ........ ٨٩
١٤- عودة القناصين إلى منازلهم ........ ٩٧
١٥- الملوك، أيضاً، يموتون ........ ١٠٣
١٦- حِيَل صغيرة ........ ١١١
١٧- حَكاية عوّاد ........ ١١٩
١٨- السكين ........ ١٢٥
١٩- مصباح صغير ........ ١٣١
٢٠- ثلاثة تخطيطات حول الزمن ........ ١٣٧
٢١- الدمية ........ ١٤٥
٢٢- تعديل الخطط ........ ١٥١
٢٣- رجل وببغاوان ........ ١٥٧
٢٤- الرجل الذي قُتل ........ ١٦٥
٢٥- يغيب زمان ........ ١٧٣
٢٦- لا يطير ولا يغرّد ........ ١٧٧
٢٧- سناجب رماديّة.. دببة عسليّة العيون ........ ١٨٣

في كلّ مجموعة قصصية جديدة يفاجئنا لؤي حمزة عباس بقدرته على إمتاعنا بعالم قصصي فريد ومتعدّد الأوجه، مع كلّ كتاب جديد نقف أمام تجربة فائقة تضاف لا للقصة العراقية حسب بل تتواصل مع أرقى نماذج القص العالمي. وكتابه الجديد (حامل المظلة) خير ممثل لقدرة القصة القصيرة، الفن السردي الأصعب والأجدر والأكثر بقاء. إن قصص الكتاب تتفوّق على غيرها بالإلهام والاستنباط والقدرة على صنع القص والحكاية حتى من مراقبة بسيطة أو لقطة عابرة. هذه البديهية وهذه المباهاة تجعلنا نُدرك سر فن القصة، كما إن قراءتها تدفعنا لإدراك مهابتها وصعوبتها وقدسيتها في آن واحد.

(حامل المظلة) فرصة للاحتفاء بالقصة العراقية الحقيقية، الجادة والمتجدّدة.

عبد الهادي سعدون

مكتبة الفكر الجديد

ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع
الكتب خان 13 شارع 254 ــ دجلة